الثقافة الجديدة

مجلة فكرية ابداعية

شهرية تصدر مؤقتا أربع مرات فى السنة .

السنة الاولى ــ العدد الثانى ــ شتاء 75

العنوان :
محمد بنيس ، ص. ب. 505
المحمدية ــ المغرب
الحساب البريدى :
محمد بنيس : 1.383.41 ــ الرباط

المدير المسؤول : محمد بنيس

التحرير : مصطفى المسناوى

المَوضُوعَات.

الاشتـــراك الـــعـــادى :

المغرب 10 د. البلاد العربية 20 د. اوربا 25 د. او ما يعادلها

اشتـــراك المســـانـــدة 50 درهمـــا .

1 ـــ المقالات التى تنشر فى المجلة تعبر عن رأى كاتبيها.

2 ـــ المقالات التى لم تنشـــر لا ترد الى اصحابها .

قراؤنا.

اخى الاستـــاذ محمد .

تحية ومودة ، وصلت الاعداد العشرة ووزعتها على الاصدقاء . أنقل اليك فرحى واعتزازى بالمجلة ، كذلك فرح الاصدقاء واعتزازهم . نحـــن هنا ، كما كتبت لك سابقا ، على استعداد كامل للتعـــاون الكامل . طبعا ليس الامر سهلا ــ خصوصا فى أن النصوص الجيدة ، فعلا ، سواء كانت شعرا او نثرا ، قليلة : لا بد ، اذن ، من ان ننشر نصوصا واحدة فى آن واحد . وليس فى هذا حرج ــ « فالثقافة الجديدة » غير معروفة فى لبنان، و « مواقف » هى ايضا ضئيلة الانتشار فى المغرب ، فهمـــا ، على هـــذا الصعيـــد تتكـــامـــلان .

تقدير كبير ــ ادونيس ــ لبنـــان

أخى العزيز محمد بنيس .

تحيـــة طيبـــة جـــدا .

وصلتنى منذ يومين الاعداد العشرة من مجلة الثقافة الجديدة . شكرا لك ولجميع الاخوان . واهنئك بهذا الحدث الفكرى الذى احدثته مع الاخوان المفكرين المغاربة الاشقاء . أرجوا أن يتواصل هذا العطاء ، وان يمتد هذا المد ، وان يقدم ايراده القوى الحاسم لنا جميعا وللمستقبل ايضا ، وان يبصر من على أبصارهم الغشاوة والضباب والجنون ... اقول هذا لانـــى اعتبر نفسى من المسؤولين عن هذا الحدث ، نعم مسؤولا تلقائيا .

عز الدين المدنى ــ تونس

ايهـــا الصديق ، بعد التحية :

لقد حصلت على العدد الاول من مجلتك فى احدى مكتبات (القصر)

شأن غيرى من القراء ... واتمنى ان تعرف هذه التجربة من تجارب حياتك الثقافية ما تستحقه من التشجيع ، والعناية ، والاستمرار ...

محمد الكنونى ــ القصر الكبير

أيها الاصدقاء بمجلة الثقافة الجديدة .

تحية اعجاب وتقدير . أهنئكم على اصداركم مجلة الثقافة الجديدة. اتمنى لها المقام الدائم . والصدور المنظم حتى تبلغ رسالة الثقافة الجديدة.

محجوب على ــ البيضاء

توصلت بالعدد الاول من (الثقافة الجديدة) الذى كان موفقا فى شكله ومواده . ولقد جاءت ــ المجلة ــ فى فترة عصيبة ، تجتازها الساحة الثقافية ، بالمغرب خصوصا ، جاءت ــ المجلة ــ لتفتح دربا جديدا ، صعبا شائكا ، ولكنه ضرورى . ان أدل ما يطمح اليه قارىء « الثقافة الجديدة » هو الا يكون دورها مقتصرا على فتح الدرب ، دون السير فيه. ان الاستمرار هو الكفيل بتحقيق الاهداف المرجوة .

حسن الامرانى ــ وجدة

ارتياح فى الوسط الثقافى هنا (فى الاربعاء) لصدور هذه المجلة التى راقتهم افتتاحتها جيدا .. وهم يتمنون ان تسير المجلة مع الخط الذى رسمته لنفسها فى العدد الاول .

عبد الله راجع ــ اربعاء الفقيه بنصالح

رأيت فى بزوغ « الثقافة الجديدة » بادرة طيبة وطريقا لبعث جديد للافكار الحية والآفاق النيرة التى كادت ان تقبر او يصيبها الملل والعقم فى وسط المسالك ــ حيث الزحام والضيق والخناق .

أملى أن تكون مجلتكم الفكرية خطوة نحو اشراقة جديدة وتفتح صلب على كل الاقلام والافكار ... أن تكون أداة وصل حقيقية لكل المثقفين والمفكرين والشباب على كل المستويات حتى تكون معبرة عن آراء الجيل الجديد وعن طموحه فى بناء صرح مجتمع تقدمى أكثر وعيا ونضجا وتحررا.

ارغب أن تكون مجلتكم منطلقا لنظرة تحليلية لقضايا معاصرة ، وحتى لا يقع بحث المواضيع التقليدية التى تنصب عادة على مراحل تاريخية من

التفكير مضت والفت فيها الكتب والمؤلفات كمناقشة مثلا : ما يتعلق بالتراث ومعطيات او سلبيات الحركة السلفية ومواضيع غيرها ... حتى لا تصاب مجلتكم بالعقم والوقوف عند بداية الدرب شأنها شأن المجلات والصحف التى اصيبت بتقهقر فى خضم التيه والشرود .

على مجلتكم ان تاخذ بعين الاعتبار الاهتمام مناقشة آثار الجيل الجديد أن تبحث تطلعاتهم ، أن تعطى الاهمية لدفع الشباب نحو الكتابة والبحث والابداع لان تحقيق اى نضج او تقدم فى مجتمعنا او فى ثقافتنا لا يكمن او لا يتحقق الا من خلال هذه التوقعات والاهتمامات .

عمر السراج — الرباط

تقبلوا منى تحياتى وتقديراتى مع كل متمنياتى الحارة لكم واتمنى لمجلتكم التوفيق .

بنانى محمد حسن — مكناس

الاخ المبدع بنيس

استطعت ، بعد جهد خيالى ، أن احجز لنفسى عددا من « الثقافة الجديد » كنت فرحا كطفل يكتشف اصابعه الوردية لاول مرة .

الاعداد نفذت فى تزنيت وتافراوت وتارودانت وصلنى العدد متاخرا بالطبع وقال حامله انه اتى به من كليميمة ، صدقته ، ولم لا ؟

لا اريد ان اكتب الآن تقييا للعدد فذلك شىء احتفظ به ، واريد فقط ان اشد على يديك بحرارة ..

اخوك بحراوى حسن

بمزيد من الاغتباط تلقيت ظهور المجلة الادبية « الثقافة الجديدة » والتى كنت انتظرها منذ ان سمعت انها ستظهر .

ولا يخفى على احد فقر الساحة الادبية فى المغرب من المجلات والحوليات الرائدة الملتزمة ، والتى لا يمكن بدونها ان يقف الادب العربى بالمغرب على قدميه ، او يطل على العالم الخارجى ، سواء العربى او العالمى ...

اما وقد ظهرت الثقافة الجديدة فانى آمل مخلصا ، ويشاركنى الكثير من الشباب المثقف ، ان تكون رائدا من رواد نهضتنا الادبية .

ادريس الورغى — الرباط

الاخ بنيس محمد

لقد توصلت بالعدد الاول من مجلتكم « الثقافة الجديدة » التى لفتت نظر بعض الاخوان بما تحويه من موضوعات هادفة لتحدى الازمة الثقافية فى بلادنا ومحاولة خلق بديل يعتمد على الوعى الحضارى العميق كسبيل فعال للتغيير والابداع . كل ما اتمنى للمجلة هو العمر المديد .

التزانى مخلص احمد — بنى ملال

مُقدّمة لِلقارئ.

تستمد هذه الفترة قوتها من قدرتنا على تصحيح تجربتنا الفكرية / الابداعية بكل صدق وبعد عن الدوغمائية .

اننا فى حاجة الى تفتح فكرى / ابداعى ، يأخذ طريق التصحيح التى اصبحت ضرورة موضوعية لتجاوز الضعف والعجز والتخاذل المميز لحركتنا الثقافية بصفة عامة .

وقدرتنا على التصحيح يجب أن تنطلق منا ، مع الايمان بها ، واتخاذها اسلوبا جديدا لسلوكنا وممارستنا ، لان التاريخ القريب برهن ، وبشكل قطعى ، على فشلنا فى اعطاء بصرنا واصابعنا الحدة اللازمة لادراك منحى التاريخ ، حتى نتقدمه ، ونسهم فى الكشف عن الدلالة الصحيحة لطبيعة العمل الفكرى / الابداعى الذى نرى استعماله وسيلة للتغيير الذى لا بد ان يشهده الانسان .

تعدد وتناقض وصراع الاصوات ضرورى . القطيعة هى التى لن تنفعنا ، لن تنفع من يريد السير . مفهومنا للعمل ، اى عمل ، يجب ان يسير فى هذا الخط ، خط المناقشة الجدية الواعية المسؤولة . ولا اعتبار لمن يقف ضد هذا الفهم معاديا ومعارضا . اننا ننطلق من التجربة / الواقع ، لاخذ المقياس الصحيح لمبادراتنا .

أزمتنا الثقافية تحتاج لكل المناقشات والتناقضات والصراعات ، مع الاحتفاظ بالصبغة الديمقراطية فى الحوار والصراع . لسنا متسرعين للوصول الى نتائج ايجابية منذ البداية . ان هذه النتيجة ستأتى مع تحقق الوعى الصحيح ، وادراك الجوانب المتعددة المجهولة لحد الآن . والذين يصدرون الاحكام المطلقة دون أخذ الاعتبارات الضرورية سيقعون فى نفس الفشل الذى ندور فيه .

ان الايمان بضرورة تجاوزنا لنفسنا ، فكرا وابداعا ، من خلال رؤية علمية صحيحة شرط للخروج من هذه الدوامة المجنونة التى تخنق تجربتنا ، وقد تجعلنا نشعر بالفشل واللاجدوى .

هـــذا طـــريقنـــا .

فى العدد الاول طرحنا بحوثا وآراء وتجارب ، متعددة الميادين ، وهو ما نفعله اليوم فى عددنا الثانى ، ونفس ما سنقوم به فى الاعداد المقبلة . كل ما ينشر قابل للمناقشة والتناقض والصراع . ليس هناك حل نهائى فى اى مجال ، وعاينا الدخول جماعيا فى النقاش . شرطنا الذى طرحناه فى مقدمة العدد الاول لا يتغير . دفع التاريخ الى الامام واجب . وكل ما ينشر يجب أن تتوفر فيه هذه الصفة ــ الضرورة . والمجلة مفتوحة لجميع الواعين بهذه المسؤولية .

المجلـــــة

النهضة والثورة / المشكل النقدي .

انــوار عبــد المالك .

مــقــدمــة

هذا المقال مأخوذ من كتاب « نهضة العالم العربى » الصادر عـــن مجموعة : « عام اجتماع حديث » ، وهو يتضمن مجموعة من العروض قدمت فى ندوة عقدت « بلوفان » فى نوفمبر 1970 بناء علـــى دعوة مـــن الجامعة الكاثوليكية « بلوفان » وشارك الجامعة فى الاعداد للندوة حلقـــة الطلاب العرب ببلجيكـــا .

وقد وقع الاختيار على هذا المقال ايمانا منا بالحوار الديمقراطـــى البناء بين المفكرين العرب حول مجموعة من القضايـــا المصيريـــة . ولان المقال يطرح وجهة نظر لا يمكن اغفالها فى التاريخ العربى الحـــديث ، والتاريخ المصرى على الخصوص ، وما صاحب ذلك من ظهـــور بعض التيارات . كما يطرح وجهة نظر الكاتب فيما يجب أن تكون عليه الوحدة العربية ، مع تحديد الدور المنوط بالمثقفين العرب . ويجب التذكير بأن المقال كان مرتجلا وهذا يفسر ما يوجد به من التكرار وعدم الربط احيانا، ولذا استغنينا عن مقدمته التى يطرح فيها الكاتب بالحاح ما تفرضه المرحلة التاريخية من تجاوز للشعارات ، وانصراف الى النقد العلمى . ويبقـــى المقال فى النهاية معبرا عن وجهة نظر صاحبه .

طرح المشكـــل :

لنبدأ الآن بطرح المشكل الذى اثرته فى الجلسة الافتتاحية ، وهو المشكل الذى برز فى مختلف تيارات الحركة الوطنية العربية ، عند الصدام مع الغرب فى نهاية القرن 18 وبداية 19 ، فهذه الاشكالية طرحت دفعـــة واحدة على المستوى السياسى لا على المستوى الثقافى وهى : « كيف اصبح هذا العالم جحيما للمومنين ، وجنة للملحدين » ؟ كيف أصبح الشرق

ارض الاسلام عالم الانحطاط ، وما هو السبيل الى بعثه ؟
لست البادىء بطرح هذه الاشكالية . اقولها فقط للذين يجهلـــون نصوص تلك المرحلة ، وهى نصوص ودراسات تطرح بدون استثنـــاء مشكل الانحطاط ، ولكنها لم تكن تطرح مخططات آنذاك ــ وكلها تتضمن ثنائية الفشل والانحطاط من ناحية ، والنجاح والنهضة من ناحية أخرى. انه مشكل الساعة آنذاك ، واعتقد ان طرحه فى ذلك الوقت ذا دلالة جد صائبة . وفعلا ، فان نظرة المجددين فى العالم الاسلامى الناطق بالعربية كانت سليمة « فكرة العالم العربى لم تكن قد تحددت بعد » . أن هـــذا المشكل لم يتخذ صبغة تعويض فئة سياسية باخرى ، أو احلال تشكيل اكثر تقدما محل التشكيلة الاقطاعية . ولم تطرحه مختلف البلاد العربيـــة كمواجهة لتحد بل كرد على وضعية تاريخية معينة ، وضعية مجموعـــة كانت تحس وتدرك وترى نفسها كمجموعة حضارية . وقد طرح على هذا النحو آنذاك خاصة فى مصر ولبنان .(لبنان المجموعة السورية) ، وايضا فى تونس . فمنذ البداية ، اى منذ الخطوات الاولى للنهضة لم يكن الامـــر يتعلق بسلطة سياسية او نظام سياسى ، بل كان متعلقا بعظمة الاسلام ، والشرف والتاريخ ، وايضا ببؤس الاسلام والشرق والتاريخ فى الحاضر. ولم تر هذه المجموعة الوطنية الثقافية العربية نفسها كفريق وضع فى صحراء ما ، وعليه ان يعوض مجموعة من البدو بمجموعة من المدنيين. لقد ادركت انطلاقا من التاريخ والثقافة التقليديين ، انها تنتمى الى شىء كونه هذا المجموع المتشابك الممتد ، اى حضارة وعالم الاسلام .
وهذه الاشكالية لا تطبق على كل المناطق ، انها تماثل تلك التى طرحت فى الصين ووجـــدت فى اليابـــان على عهـــد ميجـــى وايضا فى الفيتنام خلال مرحلة معينة . كما انها لم تطرح فى العديد مـــن المناطق الواقعة تحت نفوذ الامبريالية ، فليست هنـــاك اشكاليـــة بعث قومى فى الباراغواى مثلا ، او فى البرازيل ، لانهم لا يرون خصوبة الحقل التـــاريخـــى ، champ Historique بل يهتمون فقط بدلالته السياسية فى الحاضر . وهذا يمكن من فهم السبب الذى يدفع الامبريالية اليوم ، الى توجيه ضرباتها على الخصوص الى الساحة الاسيوية فى المحيط الهادى ، يعنى الساحة الصينية اليابانية الفيتنامية ، والى التحرك الصينى من جهة والاسلامى من جهة أخرى ، (ويشكل العالم العربى مركـــزه العصبى) . والامبريالية تفعل ذلك لانها لا تواجه فى هذه المناطق شرذمة يجب ابعادها ، ولكنها تصطـــدم بمشروع حضـــارى ــ وليس سياسيا فحسب ــ يريد الاستمرار واخذ المبادرة رغم انهياره . انه مشكل معقد ادركه الغرب المسيطر بوضوح ، ولكنه يعمل على طمس ابعاده.

مراحـــل البعث الـــوطنـــى :

وتتلخص فى مرحلتين كبيرتين عاديتين ، تبتدىء أولاهما من الصدام مع الغرب (نهاية القرن 18 وبداية 19) الى الحرب العالميـــة الاولى (1914 — 1918) ، والثانية تمتد من نهاية الحرب الاولى ، الى أزمة النظام الاستعمارى الكلاسيكى (1929 — 1932) ، ولا اقول أزمـــة الامبريالية العامة ، لانها أزمةالنظامين الاستعماريين الانجليزى والفرنسى خاصة ، بين ثورة أكتوبر والازمة الاقتصادية فى سنـــوات (1929 — 1932) .

1 — المرحلة الاولى : ثورات التحرير الوطنية :

هذه المرحلة هى فترة الثورات الوطنية الكلاسيكية الهادفـــة الى الاستقلال الكامل . وهذا الاستقلال لم يكن ضمن برنامج العديـــد مـــن الاحزاب ، التى كانت تقف عند المطالبة بالحكم الذاتى قبل الحرب العالمية الاولى ، لان المحتل قبل انجلترا وفرنسا هو السلطان التركى اى ممثـــل الاسلام الذى لم تكن تعتبر نفسها منفصلة عنه . ان الاستقلال الكامـــل لم يفرض نفسه الا بعد الصدام المادى المباشر مع الغرب ، فى شكـــل احتلال وغزوات عسكرية ، وحروب بالمغرب والجزائر ومصر وسوريا الخ

واذا أمكن أن نلخص هذه الفترة ، فانها تبدو لى على الخصوص فترة محاولة لخلق دول وطنية مستقلة ، أو متوفرة على الحكم الذاتى ، لهدف نطلق عليه اليوم « التنمية الوطنية » ، أو « البناء الوطنى » ، أو التنمية السياسية فى اطار الحكم الذاتى أو الاستقلال .

ان المثالين الاكثر دلالة فى هذا المجـــال همـــا (وفى ذلك بعض التنـــاقض) الطفرة التى عرفتها مصر مع محمد على واسماعيل ، والتى لا يهتم بها الغرب (واورد رقما للاستدلال : ففى سنة 1932 ، كـــان طول الخطوط الحديدية بمصر يفوق مجموعها فى فرنسا . وهذا يعطينـــا نظرة عما كان موجودا قبل التقهقر) . أما المثال الثانى والمهم جدا ، فهو الحروب الشعبية والانتفاضات المستمرة فى بعض بلدان المغرب العربى ، والتى لم نفرد لها اهتماما كافيا ، خاصة فى المغرب والجزائر . ان تقليد الحرب الطويلة الامد فى المغرب حتى سنة 1930 تقريبا ، وفى الجزائـــر اكثر من ثمانين سنة بعد التدخل الفرنسى ، يبـــدو غائبا عـــن التفكير السياسى العربى اليوم ، ولا يلقى اى اهتمام . واقول بوضوح بأنه يتحتم علينا الاهتمام به ، ان الحروب الانضمامية بالمغرب شىء يهرنى دائما ،

انني اجهل تاريخها التقنى ولكنها تشكل واقعة من التاريــخ السياسى : فحتى 1930 — 1936 ظلت القوة الاستعمارية تعمل على اخضاع البلاد عسكريا ، لانها لم تكن قد خضعت بعد - والواقعة الاخرى تتمثل فى كون الجزائر التى قيل عنها بلد بدون خاصية EX — NIHILO فى سنة **1945** ، قادت حرب تحرير مسلحة مرتكزة على الجماهير الشعبية خلال ثلاثة اجيال بعد سنة 1932 . ان هذه الامثلة تعد من الظواهر الاساسية للتاريــخ السياسى العربى ، وتمثل اهمية موازية للطفرة التى عرفتها مصر فى عهد محمد على ، رغم اختلاف فى البعد الدولى لكل منها . واريد أن أقول بأن علينا الاهتمام بالاشياء التى تبدو ثانوية ، لانها فى احيان كثيرة تكون بالغــة الاهمية بالنسبة للمستقبل ، ولان ابناء المغرب العربى لا يدركون جيدا ، ولا يرون أهمية الرصيد الذى يمكنهم الاعتماد عليه ، اذا أرادوا حقا السير نحو منفذ ثورى .. بالنسبة لهم اذن ، هذان المثالان هما اهم الاحــداث السياسية الكبرى لهذه المرحلة ، اما الاحداث الثقافية الهامة ، فتتلخص فى النهضة بمصر وسوريا ولبنان ، وهى مجموعة تشكل الى اليوم مركز الثقافة والفكر فى العالم العربــى .

2 — المرحلة الثانية : التحرر الوطنى والثورة الاجتماعية :

بدأت هذه المرحلة مع أزمة المطالبة بالاستقلال الكامل . ودون أن نخوض فى المسبقات الايديولوجية ، (لان النظرية تتبلور انطــلاقا مـــن التحليل النقدى الذى يقارن بين الحالات الملموسة وليس انطــلاقا مـــن الشعارات الايديولوجية) ، نلاحظ ان المهمتــين الاساسيتــين للحركــة الوطنية فى كل هذه البلدان ، على تعدد بنياتها واحزابها السياسية ، هما الاستقلال الكامل على كل المستويات الاقتصادية والسياسية والثقافيــة والعسكرية الخ ...، واعادة بناء المجتمع والتشكيل الاقتصادى والاجتماعى لهدف ننعته اليوم بالتطور والتحديث وأطلق عليه اسم التشييد والبناء .

هاتان المهمتان الاساسيتان لم تتحققا على أكمل وجه من طـــرف الفئات والطبقات الاجتماعية المختلفة ، المنبثقة اما عن الارستقراطيــة العقارية القديمة ، أو عن القطاع الزراعى للبورجوازية ، خاصة فى مصر وسوريا وتونس . ومن الواضح أن هذه الفئات والطبقات الاجتماعية ، لم تكن تتوفر على القدرة والتبصر أو للارادة لتحقيق ذلك . وايضا يجب التأكيد على ان المجموعة العربية ليست كاليابان : فلم يكن قد مر وقت طويــل على تعرضها لغزو أساطيل الامبريالية ، ولم تكن امكاناتها الجغرافيــة لتسمح بالانطلاق الكافى . ولا يجب علينا ان ننسى ان العالم الاسلامــى وخلال عشرة قرون ، قد أخضع بالحديد والنار منذ الحروب الصليبية ، وحتى التسلل الاستعمارى ثم الامبريالى . الا أن هناك حقيقة وهـــو أن

المبادرة العظيمة من طرف محمد على ، لبناء دولة ارتكزت على تكنولوجية حديثة وجيوش متقدمة ، ونظرية « سان سيمونية » فى تنظيم الدولة والاقتصاد ، بالاضافة الى الحروب الشعبية فى المغرب العربى ، والنهضة الثقافية فى الشرق الادنى : اى مصر وسوريا ولبنان ، والحروب الانضمامية فى منطقة سوريا الكبرى ، ووقوع هذه الاحداث فى فترة تفجر الازمة الكبرى للنظام الاستعمارى ، والتى مهدت لها الحرب الاولى وبلغت ذروتها بين 1929 — 1932 . هذه الحقيقة هى ان هذه الانطلاقة القوية لم تقدر على الصمود بما فيه الكفاية فى وجه التغلغل الامبريالى ، بل ان الامبريالية تمكنت من خلق فئات وطبقات اجتماعية مرتبطة بها عضويا . وحصلت انقسامات فى صفوف البورجوازية المسماة بالوطنية .

ونظرا للتاريخ المضطرب لحركات اليسار الاشتراكية والشيوعية والنقابية فى معظم هذه البلدان ، ونظرا للعلاقات الموجودة داخل الجبهات الوطنية ، التى كانت تجمع فى تلك الفترة بين التنظيمات اليسارية ، ومجموعة مهمة من قاعدة الاحزاب البورجوازية : برزت فى العقد الرابع من هذا القرن ، وداخل التنظيمات السياسية فى العالم العربى ، تنظيمات اكثر جذرية من الاحزاب الاولى المسماة بالوطنية ، الى جانب تنظيمات اخرى لم يدرس تاريخها بعد . المهم فى كل ما ذكر هو انه وفى هذه الفترة، برزت تنظيمات وطنية جذرية الى جانب التنظيمات الاشتراكية والشيوعية.

حصل هذا الانشقاق اثر الازمة العالمية كرد على الافلاس او الفشل النسبيين للبورجوازيات المحلية . وبدأت المرحلة الثانية للحركة الوطنية والنهضة العربية ، (من 1930 حتى 5 يونيو 1967) . ودون أخذ بالمسبقات الايديولوجية والشعارات ، يمكن ان نلاحظ اثناء هذه المرحلة تعزيزا وتعميقا ملحوظا لمفهوم الثورة الاجتماعية ، مقترنة بالثورة الوطنية وقد بدات قضية الاشتراكية تطرح بشكل جدى ليس من طرف زمرة يسارية انضمامية ، ولكن من طرف القوى **الاساسية** للحركة الوطنية ، بينما كان طرحها فى السابق مقصورا على الاحزاب الشيوعية والنقابيين الثوريين ، الذين رفعوا الاعلام الحمر فوق معامل الاسكندرية سنة 1924 ، ظانين بذلك انهم شكلوا « سوفييتات » .

وقد اثيرت القضية بصورة اجمالية فى فترة الحرب العالمية الثانية، ليس داخل اليسار والاحزاب الشيوعية فحسب ، ولكن أثارتها الحركات الوطنية بشكل عملى وليس نظريا ، قائم على التجربة المعاشة وليس على النظرية المسبقة . لماذا حصل ذلك ؟ لانه وبالتحديد اذا اغتنت البورجوازية خلال الحرب ، وفرضت نفسها وتعززت فى كل مكان ، فان

ذلك يعوق كل تقدم . وقد وقع ذلك بالفعل ، فمنذ 1945 وحتى حـــرب الجزائر ، نلاحظ أن تجنيد الجماهير الشعبية ، لم يعد شيئا مهما فحسب، ولكنه اصبح شرطا حيويا من اجل الخلاص لخلق جيش من العمال ، يقف فى وجه الصدام الاستعمارى . ولم يكن ذلك ممكنا انطلاقا من الشعارات الوطنية ، بل القومية .

وانطلاقا من الواقع يبدو الرباط الوثيق بين كل ما ذكرنا — ليس انطلاقا من الخط النظرى بل من الصراع العملى — بصرف النظر عن وجود قطاعات من البورجوازية « الوطنية » أو المسماة « بالوطنية » يمينية متحالفة مع المستعمر ، وتلعب دورا فى البنيات الاقتصادية للبلدان العربية. واذا كانت هذه الفئات يمينية فهى تشكل بالتالى قوة مستغلة (بكســر الغين) داخل بلدانهـــا .

وقد سار المخطط بطريقة سوية خلال تجارب الجبهـــة الوطنيـــة نفسها ، بتحريض من الاحزاب الشيوعية والحركات الماركسية فى العالم العربى ، (ويجب ان نقول ذلك ونؤكد عليه لانه غير معروف) .

التى لعبت دورا أساسيا خلال هذه الفتـــرة فى توجيـــه المشروع من الصعب ذكر الاستقلال دون الاشارة على الاقل الى الاشتراكية ، او آنذاك أصبحت قضية الاشتراكية مرتبطة باشكالية الاستقلال ، واصبح الوطنى باكمله ، والتى لم تكتف بصياغة برامج ليسار معزول عن الجماهير. محاولة ادخالها فى المشروع الوطنى . وقد ادى هذا ويؤدى الى تحول فى الاتجاه لدى الدول الوطنية المستقلة ، (والتى اسميها الدول الوطنية التقدمية فى العالم العربى التقدمى) ليس نحو برنامج او تحقيق مشاريع ، بل نحو عدة اختيارات أو بالاحرى نحو اختيار الاشتراكيـــة ، وليست الاشتراكية العربية كما يعتقد الكثيرون ، ولكنها الاشتراكية العلمية .

ان الوثيقة الاساسية فى مصر ، والتى اريقت الكثير من الدماء فى سبيلها وهى : « ميثاق العمل الوطنى » الذى يحدد الاشتراكية فى الفصل السادس بصفة « الاشتراكية العلمية » ، ويرفض كل صياغة خاصـــة للاشتراكية تضفى عليها صبغة اسلامية او عربية أو شرقية ، وهذا شىء أساسى . فمن ذلك الوقت اى 1962 تحقق التحول الكبير « وبالضبط منذ سنة 1964 » ، الذى أدى بالدولة المصرية الى الصياغات الاكثـــر جذرية بالتحالف مع اليســار ، وخاصة بالتحالف مع العمال والفلاحين ، فى حوار مباشر وهام جدا يستحق الدراسة .

ان هذا التحول هو الذى حدد التدخل العسكرى ليونيو 1967 ، فلو لم يكن برنامج مارس 1964 ، الذى توسع فى قضايا « الميثاق » ، لما كان اعتداء يونيو 1967 ، الذى هدف الى تقويض هذا التيار الاكثر جذرية، والحد منه وسط الجماهير العربية والشرقية والافريقية باى ثمن . فمنذ

1940 ، بل منذ عهد محمد على ، عرفت الامبرياليــة أن عليهــا ضرب المحور الذى تمثله مصر ، اذا ارادت تقويض الشرق الاوسط وشمل افريقيا. فمصر هى الدولة الوحيدة القادرة على توفير الطاقة الاكثر فعالية ، لتمويل وتعزيز عمل تحررى على نطاق واسع . والامبريالية هى الاخرى تدرك ذلك وعملت منذ اتفاقية لندن سنة 1840 حتى يونيو 1976 والى اليوم، لتقضى على ارادة الاستقلال الذاتى فى دولة مصر ، لان عملها هذا يمكنها مــن اخضاع الشرق الاوسط بأكمله . هذا هو اساس المشكل .

ان هذا التاريخ مهم جدا ، ولقد حاولت أن أشرح الاشكاليــة على الصعيد المعاش وليس انطلاقا من مسبقات أو خلفيات نظرية ايديولوجية.

واذا كانت نظرية الاشتراكية العلمية هى اليوم النظرية الاساسية لدى الجماهير الشعبية فى الحركات الوطنية العربية ، ولدى بعض الدول العربية الوطنية التقدمية ، فاننى أرى ذلك باعثا على الامل وليس العكس كما يعتقد البعض ، لانه يفتح مجال العمل عوض التشطيب عليه . لقد تغيرت الساحة ولم تعد كالسابق ، وهى لم تتغير بقرار ذاتى من طرف هذا أو ذاك ، بل حصل ذلك فى تطور جدلى بطىء ومستمر ، خلال التاريخ الملموس للصراع الطبقى والنضال ضد الامبريالية فى الاجزاء اهامة مــن العــالم لعــربــى .

قضــايــا نظــريــة :

1 ــ تعرض عبد الله العروى أمس فى تدخله للدور الذى تلعبه البورجوازية المدينية والتى اسميها الطبقة السياسية ، وقد تحدث عن عملها فى اعادة بناء الخط السياسى . اننى متفق معه كامل الاتفاق ، ولكننا نتحدث عن بورجوازيتين مختلفتين اذا اخذنا بعين الاعتبار المغرب ومصــــر .

فبخصوص مصر سنأخذ مثلا من سنة 1945 ، لقد كانت هنـــاك بروليتاريا بالمدن يرجع تاريخ وجودها الى ثلاثة أجيال ، فأكثر من مليون وخمسماة عامل كانوا يعماون فى مصانع يضم كـــل منهـــا خمسين عاملا على الاقل . وكانت الطبقة العاملة تلعب دورها كاملا كبروليتاريا فى الممارسة السياسية بالمدن . ومن هنا ظهرت سنـــة 1946 ، تلك الحكومة الموازية التى لم تدم طويلا ، ولكنها بالغـــة الاهمية وهى : « اللجنة الوطنية للعمال والطلبة » ، وقد حصـــل ذلك لان الاجماع فى الطبقة السياسية ، اتفق على ان الطبقة العاملة فى المدن عنصر مركزى وليس محيطى .

2 ــ رغم الاتفاق على الدور الاساسى للمدن ، فان هذه الاخيرة مختلفة اذا امكن القول ، لان درجة التطور الاجتماعى والاقتصادى تتبايــن من مكان الى آخر ، ومن هنا تبدو أهمية التحليلات الدقيقة ، التى

تمكننا من استخلاص واغناء دراساتنا المختلفة . وهــذه النقطــة محورية لانها تحدد مسار الاشياء .

3 ــ النقطة الثالثة هى مشكل العلاقات بين النهضة والوحدة العربية ، أو العلاقة بين الحركة الوطنية كما وصفتها والوحدة العربيــة . وهنا ايضا فان الدراســة الدقيقة والوحيدة التى تهمنا ، تبرز انه فى الواقع وحتى فترة قريبة جدا ، لم تكن هناك فكرة « العالم العربى » او « الوحدة العربية » . بل أن الفكرة المسيطرة فى نهضة العالم العربى الحديث ، كانت هى الاسلام خصوصا وأحيانا الشرق .

ان التحول نحو الحركة العربية تم خلال ثلاث مراحل :

أ ــ قبل وبعد الحرب العالمية الاولى مــن جهــة اثنــاء انهيــار الامبراطورية العثمانية فى المجموعة التى اسميها سوريا الكبرى ، وأعنى بذلك سوريا والعراق والاردن ولبنان وفلسطين . وهى مجموعة من الاقاليم والمناطق لم تتمكن منذ سنة 1920 خاصة ، من تحقيق وجودها كدولــة متماسكة ، لانها فقدت هذه الصفة منذ فترة طويلة . وكانت تمثــل اقليما ينتمى الى امبراطورية اسلامية واحدة ، وعند ما ضعفت هذه الامبراطورية استحالت مجموعة سوريا الكبرى الى دول مصطنعة ، قسمت دون اى مبرر من طرف القوى الاستعمارية المنتصرة (معاهدة سيفرولوزان 1920 ــ 1921) . وقد كان هذا التقسيم جائرا : ولنأخذ كمثل سوريا ولبنــان، هذا الاخير حرم من مدخل بحرى ، بينما لا يتوفر المدخل البحرى السورى على ميناء . ان المسألة هنا تبدو كما لو ان مصر والسودان كانتا مفصولتين بحاجز عوض ان يوجد بينهما سد أسوان الذى يوصل الجنوب بالشمال. ان هذا الجور المتمثل فى تقسيم العالم العربى ، يؤكد النظرية التى تــرد تفككه الى الحواجز التى فرضتها القوى الاستعمارية . لكن لنقف عند هذا الحد . ! فمصر توجد منذ سبعة آلاف سنة فى نفس المنطقة ، وظلت دائما دولة مركزية ، وليست الامبريالية هى التى قسمت حدودها . ولذا علينا تجنب هذا الخلط والا وقعنا فى الديماغوجية .

ب ــ المرحلة الثانية تتميز بالدور الذى لعبته دول البورجوازيــة المحلية المستقلة ، لكى تتخلص من القوى الاستعمارية . أن ضعف هذه القوى أدى بين سنوات 1919 و 1929 ببعض الطبقات البورجوازيــة ، خاصة فى مصر وفى بعض فئات الاسلام السياسى ، الى القيام بمحاولة الحلول مكان القوى الاستعمارية ، وفرض السيطرة المصرية ، والبحث عن قوى تتحالف معها ، وايجاد أسواق . لقد كانت هناك عدة مبررات لذلك وخاصــة البتــرول .

ومن المهم أن نعرف أن المرة الاولى التى اثيرت فيها مسالة العالم العربى أو العروبة بطريقة جدية خاصة من الناحية السياسية ، هى عند

ما عزم محمد طلعت حرب وهـــو منشىء بنك مصر ، والوجــه الرئيسى للراسمالية المصرية فى 1920 عزم على انشاء فروع لبنك مصر فى العالم العربى لهدف بسيط لقد كان متشبعا بالاسلام ، والعالم العربى بالنسبة اليه كان هو عالم الاسلام ، الذى رغب فى احيائه وجعله مثمرا بواسطة هذه الفروع . وقد تبنى حزب الوفد هذه النظرية بصفة رسمية سنة 1935، عند ما اعلن كاتبه العام مكرم عبيد ، الذى كان قبطيا ان مصر — ولاول مرة فى تاريخها — دولة عربية ، فى خطابه المشهور : ان المصريين عرب. من ذلك الوقت دخلت مصر فى المعترك العربى ، وفى سنة 1945 أسست جامعة الدول العربية بالاسكندرية .

جـ — والمرحلة الثالثة والاخيرة ، هى التى برزت فيها الحركـــات الشعبية واليسارية . وبدافع الرغبة فى الاستقلال فرضت جذرية الحركـــة هذه المرة ، ان شرع اليسار حوالى الحرب العالمية الثانيـــة فى طــرح مشكل الوحدة العربية ، كوحدة نضال بين الشعوب العربية ضد الامبريالية، وقد صيغت هذه الاطروحة بين سنة 1942 — 1944 فى مصر وسوريـــا اللتين شكلتا قطبى الجدال ، ولم تتغير هذه الاطروحة بل يمكنها ان تأخذ اشكالا عدة . ونجد فى العمق انها نفس القضية لان الامر يتعلق بالعمل على خلق جبهة قوية للتخلص بكل وسيلة من الهيمنة الامبريالية فى العالم العربى . ومن المسلم به أن هذا التطور فى النضال المشترك سيؤدى حتما الى بناء مجموعات جد مرنـــة حسب المناطـــق المختلفـــة ، فيدراليـــة او كونفدرالية ، والتى ستنتهى بعد مسار طويل متوقع وليس مبرمج ، الى مجموع اكثر بنيوية من جامعة الدول العربية . هذه المجموعات هـــى الآن فى نظرى : المغرب العربى ، مجموعـــة النيـــل (مصر — السودان بالاضافة الى ليبيا) : الشرق الادنى (سوريا ، العراق ، لبنان ، الاردن، فلسطين) ، واخيرا شبه الجزيرة العربية .

هذا هو الشكل الذى طرحت به قضية الوحـــدة العربيـــة ، وليس انطلاقا من التأكيدات التى تزعم أن هذه المنطقة الشاسعة من العالم لم تعمر الا من طرف العرب منذ سنة 1800 مثلا ، لانه لا احد البتة طـــرح الفكرة قبل اذا اخذنا مصر كمثل ، وهى الدولة التى ادت اغلى ثمن فى سبيل الوحدة ، يجب ان لا يغيب عنا ما دفعته الحركة الوطنية ، واليسار المصرى من اجل تكوين الجمهورية العربية المتحدة ، وايضا الخمســـة وعشرون الف قتيل فى اليمن ، والاحداث الاخيرة التى كانت خسائرها فى شهور قليلة تفوق الخسائر فى اليمن خلال خمس سنوات ، سواء فى جبهة القتال او الجبهة الخلفية كل ذلك يبين ان الثمن كان فادحا ، لكن يجب ان نعـــرف ان الدم الذى سال بغزارة وعن اقتناع لا يمكن ان يكون الا من اجل مشروع سياسى وليس من أجل مناورة سياسية .

ووسط هذه التطورات تبدو صورة رفيقنا الرئيس جمال عبد الناصر قائد الثورة الوطنية المصرية ورائد الوحدة العربية والمسير اكفاء للشرق المنبعث الثوري .

ان المراحل التمهيدية الثلاثة التى ذكرنا من شأنها أن تؤدى الى تعميق لوحدة النضال لدى الشعوب العربية والى وضع بنيات وحدوية لا على الشكل الذى يحلم به الوحدويون ، اى فيدراليات مكونة من دول يعني من اجهزة سياسية ، بل تلك التى نريدها نحن ، وكيسارى آمل أن تضطلع فيها القوى العمالية والفلاحون بالدور الاساسى ، انها مجرد أمنية لم تتحقق بعد لان علينا ان ننطلق من الوقائع كما هى وأن نرى الاحتمالات الممكنة لا ان نكتفى بوضع ميثولوجيا للمستقبلية الايديولوجية.

المشكل النقدى والثورة الثقافيـة :

ان الخاتمة تدور حول العلاقة بين كل هذه العناصر : اى الانبعاث والحقوق الوطنية والجذرية ، وحركة الوحدة العربية . اين يكمن المشكل النقدى ؟ لحد الآن كان عرضى تاريخيا ولكنه نقدى أيضا ، لاننى حاولت دائما أن أتجنب الحواجز والمسبقات التى تسيطر فى هذه المجادلات . لكن الاساس هو النقد الداخلى للساحة العربية نفسها ، او للساحات العربية الموجودة . وهناك فعلا دراسات تمت بطريقة منظمة فى هذا المجال ، وقد حدثنا عبد الله العروى أمس عن دراسته لتاريخ المغرب العربى . ولقد اتفقت معه فى الرؤية رغم انى لم اهتم بالفترة التى درسها . وفيما يخص مصر ، غطت دراستى لتاريخها جيلا بأكمله ، وقطعت فيها شوطا بعيدا بمعونة كل الزملاء ، وقد توصلنا الى أطروحات أساسية . ان الانهيار الذى حصل بعد النهضة الاولى (من محمد على الى عرابى) ، والازمة الحالية لا يعودان فقط الى الامبريالية ، لان هذه الاخيرة ليست حلا جاهزا نعلل به كل شىء ، كأنه الشيطان الذى نبرر به ضعفنا . اذا تمكنت الامبريالية من ان تتغلغل فذلك لانها وجدت المجال مفتوحا فى الساحة العربية . والسؤال المطروح هو : لماذا سمحت الساحة العربية بهذا التغلغل ؟

لقد حصل ذلك فى مصر لاسباب تاريخية معينة ، وليست ميثولوجية. فتكوين الدولة الوطنية ، وكذا ظهور البورجوازية فى مصر ، التى لم يتوفر لها الوقت أو الارادة أو التبصر الكافى ، لترتكز على ايديولوجية ، أو ما أسميه فلسفة للثقافة القومية ، اى تصورا نظريا يشمل المشروع السياسى الوطنى الكفيل بتحقيق الوحدة والانطلاق .

وفى مصر الآن ندرك أن هناك تسوية ، بل ارادة فى تسوية دائمة بين المحدثين الليبراليين والمتشبثين بالاسلام . هناك محاولة لطمس كل تقييم نقدى ، والحفاظ على كل المتناقضات : كالاسلام ، والفراعنة ، والعروبة، والاشتراكية ، والرأسمالية والاستقلالية ، والتقليد . كل ذلك فى سبيل

مشروع يزعمون انه الوحيد القابل للتطبيق . وهناك حقيقة حول هذا المشروع ، فرغم كونه ليس الوحيد القابل للتطبيق الا انه يبدو الاكثر مرونة لتحقيق أكبر قدر من التماسك المصرى ازاء امد الامبريالى ولكنه عاجز على ان يتقدم أكثر من ذلك . انه مشروع حصر وليس مشروع انطلاق بصرف النظر على ان العديد من الخطوات تحققت بواسطته فى اطار الحد من التغلغل الامبريالى . ورغم ذلك فلا يمكن ان يحتمل تقدم حقيقى نحو مستقبل مشرق بهذه الجبهة المكونة من كل الاتجاهات . يجب ان يوضع نقد أساسى للمكونات البنيوية للشخصية المصرية وللمشروع الوطنى الذى يترتب عنها. واليوم لا يمكن أن نتصرف وكأن على الجبهة الوطنية ان تسيطر على كل شيء ، وهو موقف اتخذه زملاؤنا منذ ثلاثة اجيال عن ارادة ووعى . اما الآن وبعد يونيو 1967 ، فانى اعتقد ان الوقت قد حان لان نشرع فى هذا النقد الذى يبدو لى اكثر اهمية بالنسبة للمشروع السياسى فى الحاضر ، من تجنيد لجان القاعدة فى الاتحاد الاشتراكى العربى او تأسيس حزب يسارى . ان الاساس يكمن فى التعريف المحدد لما يمكن ان تكونه الفلسفة السياسية لهذه الجبهة الوطنية الجذرية ، وبدون هذه الفلسفة لا يمكن ان تكون هناك جبهة وطنية .

ما هى الفكرة التى تملى هذا التصور للقضايا ، والتى بواسطتها نتمكن من العودة الى الاشكالية التى طرحناها فى البدء ؟ انها تلك التى تنطلق من أن هذه المجموعات والعوالم والمناطق المختلفة لا تكون مجموعا عاديا لانها انبثقت عن اطار حضارى كان مزدهرا ، وتتوفر على طاقة خارقة اذا ما أتيحت لها فرصة الانطلاق . أريد ان أقول فى النهاية ان الفكرة الاساسية هى صورة الانسان ، وصورة الثقافة التى يريد هذا المجموع ان يبعثها خلال نهضته . ما هو الدور الذى تساهم ويمكن ان يساهم به هذا المجموع فى العالمية ، اى ازاء المشروع الانسانى بأكمله ؟ انه ليس فقط وضع فئة محل اخرى بل هو الانبعاث بمفهوم شعبى اشتراكى .

واذا اردنا أن نتحدث بجد عن مضمون السياسة (السياسة وليست الاثارة السياسية) ، يجب أن نضع رهن اعيننا ان الجماهير الشعبية التى يحتقرها المحترفون ، أكثر تبصرا فى الممارسة السياسية من المثقفين الذين يجهلون اشياء عديدة خاصة ، اذا كانوا معزولين عن أوطانهم . ويشهد بذلك الذين احتكوا بالجماهير الشعبية ، خاصة الطبقة العاملة والفلاحين. فعمق التفكير فى النظرية الخفية العميقة للجماهير الشعبية حول مشروعها هو فى النهاية أهم من عمق التحليلات التى ترتكز على الايديولوجية الظاهرة فحسب . ولتوضيح فكرتى سأقدم رسما بيانيا : لنفترض وجود ناطحة سحاب أو جبل ثلجى فى البحر . وحسب معلوماتنا ، نعرف ان الجزء الظاهر من ناطحة السحاب هو العشر . اما الجزء الغارق فى البحر والذى لا نتمكن

من رؤيته فهو يشكل 9/10 وأرى ان الجزء الظاهر 1/10 هو الايديولوجية الظاهرة التى ندرسها : الوثائق والبرامج ، والكتب ، والتظاهرات ، وطبيعة المواصلات لدى الجمهور ، لكن الممارسة السياسية تكمن فى الايديولوجية الخفية العميقة لدى الجماهير الشعبية 9/10 ومن اللازم علينا ان نحقق تقاربا نظريا يختلف فى فهمه عن التأثرية الاستشراقية المحدثة التى عـاد اليها اليساريون اللاجئون فى الخارج . يجب ان نتمكن من استنباط حقيقة الصورة المختلطه ولكن الراسخة جدا فى الجماهير الشعبية خاصة الفلاحية منها ، صورة المشروع الوحيد الذى هى مستعدة للتجنيد والمقاومة من اجله بصفة فعالة ومستمرة ، وذلك انطلاقا من التحليـل الموضوعـى واعتمادا على المفهوم الاساسى للخصوصية . ان كل من يؤثر على مـا اسميته الكتلة الغارقة ، يشيع بعد موته ، كما شيع عبد الناصر ، ودوكول، ولينيـن ، وهـوشى منه . يجب ان ندرك ونقيس هامشيتنـا فأكثرنـا بعيد عن فهم حقيقة الشعور الجماهيرى العميق ، والصـورة المجنـدة (بكسر النون) للجماهير الشعبية . وهذا هو العمل الذى يجب ان نضطلع به اذا تحدثنا بجد عن العلوم السياسية والفن السياسى . ولا يجب ان نتجه الى التحليل الوضعى للبرامج ، والى مخططات اليمين واليسار ، او حلول الاصلاحيين ، وتحليل معدل الفائدة فى هذا القطـاع او ذاك ، لان الدراسات فى هذا الميدان متعددة ومتناقضة سواء فى اطار المغرب العربى او الشرق الادنـى .

ولذا فاننى أدعو كل اصدقائنا المثقفين العرب والاجانب لاداء هذه المهمة ، واننا نرحب بهم فى هذا العمل ذى النفس الطويل (والذى هو مسيرة طويلة فى حد ذاته ، لانه يصاحب فعلا مسيرة طويلة) ، وهـو عمـل شـورى .

ونحن مقبلون على هذا العمل الصعب والذى لم تتوفر له بعد شروط الانطلاق التام ، أقول مع سقراط « كل يتصرف حسب معرفته » . اننـى أفكر فى علم اجتماع جدلى ، اى ان يعبر كل واحد حسب ما يعرفه ، وذلك تبعا لمعرفته بالجدلية الظاهرة والخفية ، الشىء الذى يبرهن على انـه يعرف ، وله رؤيته التى ينظر بها الى هذه الاشكالية الخطيرة . ان كل ما يتحدد اجتماعيا بمستوى متواضع لكن دقيق جدا ، يتمثل فى البحث العلمى والتجربة الطويلة مع هذه الاجيال الثلاثة ، اى مع مصر منذ 1919 . وذلك يشكل حصيلة عملنا الجماعى ، كل على حدة تبعا لافكاره واتجاهـاتـه وتحليلاته . انى أعى مدى تواضع هذه الخطوة ، ومن الواجب الآن تقييمها انطلاقا مـن الـواقـع .

نقله الى العربية : **عبد الكريم نجيب**

الوعي واللاوعي*

محمـــد سبيـــلا .

هذا الموضوع فصل من الرسالة التى قدمها الاستاذ (محمد سبيلا) لنيل دبلوم الدراسات العليا ، بعنوان : (المادية التاريخيـــة والتحليـــل النفسى) ويتضمـــــن :

— العلاقة بين الفرد والمجتمع .
— الـــوعـــى .
— الوعى الزائف واللاشعور .

وقد نوقشت فى شهر مايو 1973 بكلية الاداب والعلوم الانسانية ، برئاسة الدكتور محمد جسوس ، وعضوية الدكتور محمد فتحى الشنيطى، والدكتور سعـــد المغـــربـــى .

العلاقـــة بين الفـــرد والمجتمـــع :

يرى فرويد ان الميل العميق لدى الكائن الانسانى هو السعى نحو اللذة وتجنب الالم (1) « ذلك ان مبدأ اللذة هو وحده الذى يحدد هـــدف الحياة » . بيد ان هذا الميل يصطدم بتعذر تحقيق برنامج اللذة كامـــلا . فالتعارض بين هذا الميل العميق وتعذر التلبية الكاملة هو وحده الـــذى يمكن ان يحقق متعة قوية بينما لا تحقق اللذة الخالصة الا قسطا ضئيـــلا من المتعة . تقوم سعادة الكائن اذن فى تجنبه اكبر قدر ممكن من الاصطدام وتحقيق ادنى ما يمكن من اللذة . ولكن اللذة والسعادة ليست قيما حضارية. إن الفرد وقد جيء به الى العالم بتكوين غريزى غير ملائم بصورة خاصة، سيجد عناء كبيرا فى العثور على السعادة خارج ذاته اذا لم يقم بتحويلات فى الليبدو (2) (نقل موضوعات الغرائز — اعلاء) — أن التعـــارض بين برنامج اللذة الفردى وواقع الحضارة المجتمعى تعـــارض بيولوجـــى ،

تعارض بين المتطلبات والمعطيات ، بين التكوين النوعي غير الملائم بجهازنا النفسي وامكانيات التلبية . أن هناك تعارضا لا فكاك منه بين مطالب ايروس ومقتضيات الحضارة ، بين اللذة والتقدم ، بين الفرد والمجتمع . ويمكن ان يصبح هذا التعارض تعاديا واضحا . فالمجتمع بفرضه زهدا اشباعيا على افراده يستثير لديهم روحا عدوانية تتجه صوب الكيان او السلطة الاجتماعية . ويقع تمثل هذا الصراع داخل النفس الفردية على هيأة صراع بين الهوذى المطالب اللامحدودة والانا الاعلى كوكيل للمجتمع . ولا يقف الامر عند هذا الحد بل ان الفرد يكتنفه ذنب لا شعورى بسبب من عدوانيته المضمرة تجاه المجتمع والسلطة الاجتماعية التى تحبط حاجاته الليبيدية والعدوانية . ويرى فرويد ان محنة الحضارة الحالية راجعة الى ان المجتمع لا يكترث كثيرا وبما فيه الكفاية لسعادة الفرد . (3) ان الفرد مدفوع داخليا الى البحث عن حالة سواء او عن حالة توازن ثابتة نسبيا . ولكن التوازن الفردى مهدد ومعكر بمطالب المجتمع الذى يودى بهذا التوازن ويعطل امكان تحقيق تطور متسق ومنسجم .

ويقدم فرويد مظهرا سببيا آخر من مظاهر الصراع بين الفرد والمجتمع ، بالاضافة الى السنة غير الاجتماعية والملاحاحة للدوافع وضرورة قمعها والتسامى بطاقتها ، هذا السبب هو وجود « خلل باطنى فى توزيع (اقتصاد) الليبيدو ، شبيه بالصراع من اجل تقسيم الليبيدو بين الانا والموضوعات » اى انقسام الليبيدو النرجسى الى غرائز للانا وغرائز جنسية تتجه نحو الموضوعات ، وهى نظرية فرويد الاولى فى الدوافع . هذا الليبيدو النرجسى يقابل المرحلة التى يكون فيها الرضيع غير متميز عن العالم ، اى قبل انقسام اناه الكلية الى انا ـــ ذات والى موضوع . (4) ويتوحد الطفل فى نهاية المرحلة الاوديبية يتكون الانا الاعلى الذى هو وريث كل من النرجيسية الاصلية المتجهة الى الانا والنرجسية المتجهة نحو الموضوعات والتى يكونها الاحتكاك الاجتماعى . وسواء كانت علة التعارض بين الفرد والمجتمع قائمة فى صميم انقسام الليبيدو على ذاته او فى علاقة الدوافع بالعالم المحيط ، فان الانفصام يظل قائما بين الفرد والمجتمع . ويرى فرويد انه ليس هناك اى نظام اجتماعى باستطاعاته تخليصنا من هذا التعارض ، وكأنه قانون من قوانين الطبيعة لا سبيل الى التغلب عليه .

وبما انه يتعذر تحقيق الاشباع الكافى لرغبات الفرد ، وبما ان الفرد يقدم من التنازلات والتضحيات الشىء الكثير حين يتنازل عن استقلاله وسعادته مقابل قسط ضئيل من الحماية والامن لدرجة أن فرويد يتساءل عما اذا كانت المكاسب التى ينتزعها الفرد من الحضارة كافية لتعويضه

عن خساراته وتخلياته الكثير ، فان فرويد يميل الى القول بأن الفرد مغبون وان ما يفرض عليه من كبت وقمع واعلاء انما يولد كافة انواع العصاب والقلق التى هو ضحيتها فى المجتمع المعاصر . الا يمكن اذن التفكير فى تحويل المجتمع والعلاقات الاجتماعية بقدر ما يسمح للفرد بقسط من التحرر والتلبية يعيدان للفرد بعض ما فقد من توازن ؟

ان نظرية فرويد نظرية سيكولوجية متمحورة على الفرد . فالفرد هو الاساس والهدف . اما المجتمع فيمكن ان يكون وسيلة لاسعاد الفرد ومجالا لازدهاره الكامل . وتضمر معظم النظريات المتمحورة على الفرد ، ضمنيا ، قيما فردية ليبيرالية وذات نزعة انسانية مجردة . ليس الفرد هو الذى يتعين ان نطلب منه ، فى حالة عدم توافق بينه وبين المجتمع ، المزيد من التخلى عن رغباته والمزيد من التضحية بمصالحه من اجل المجتمع ، الا ان المجتمع هو المطالب فى هذه الحالة بتعديل نفسه ليتلاءم مع مطامح ورغبات الفرد .

اما ماركس فيضع العلاقة بصورة مغايرة تماما . فالتعارض ليس قائما بين الفرد والمجتمع لان المجتمع ليس شيئا آخر سوى مجموع الافراد الذين يؤلفونه وقد انتظموا ضمن بنية مجتمعية خاصة . اما التعارض الاصلى فهو التعارض بين الانسان والطبيعة وهو تعارض او صراع دائم فالانسان يسعى الى السيطرة على الطبيعة الخارجية وترويضها ، وبذلك فهو لا ينى يطور قوى منتجة جديدة وتقنيات جديدة ومناهج عامية جديدة ، من اجل السيطرة على الطبيعة وتحويلها الى وسائل فى خدمة الانسان وتحت تصرفه . لكن السعى نحو التغلب على الطبيعة وتسخيرها لا يتم الا (او على الاقل لم يتم الى الان الا) عبر تسخير الانسان واستخدامه او هذا ما تم على الاقل الى حد الان وبذلك يولد الصراع مع الطبيعة صراعا بين البشر تتحكم فيه علاقات القوة والسيادة بين الناس وعلاقات الملكية . ليس التعارض اذن قائما بين المجتمع والفرد ، بل ان الصراع قائم داخل المجتمع نفسه ، بين فئات اجتماعية متباينة او بين طبقات وفصائل اجتماعية متنافرة المصالح والاهداف (5) .

بصدد العلاقة بين الفرد والمجتمع ، يبدو فرويد مباعدا كلية لماركس . فالنظرية الفرويدية نظرية سيكولوجية متمحورة على الفرد كأساس وغاية ، نظرية تجعل العوامل السيكولوجية متغيرات دالية عليه، والعوامل الاجتماعية متغيرات تالفة . اما المادية التاريخية فهى نظرية سوسيولوجية شاملة متمحورة على المجتمع كأساس وغاية (المجتمع من حيث هو تفاعل عينى للافراد) ، تعتبر العوامل السيكولوجية متغيرات معلولة وتابعة للعوامل السوسيولوجية .

ان التحليل النفسي الفرويدي حين ينقل الصراع من داخل المجتمع الى خارجه ، فانما يخطيء تصور مظاهر الديناميكية والصراع الاجتماعيين. فهو بتصوره المونادى للفرد ، يفصله عن نسيجه الاجتماعي الاساسي، اى عن موضعه الطبقي ودوره في آلية الانتاج ، فيصبح الصراع قائما لا بين الطبقة التي ينتمي اليها الفرد والتي لا يعدو ان يكون صراعه جزءا من صراعها مع الطبقة المقابلة ، بل يصبح صراعا بين الفرد — وقد اجتث عن نسيجه الاجتماعي اى عن طبقته — والمجتمع من حيث هو كتلة هلامية واحدة لا تمايز فيها . ان التحليل النفسي « ... حين يركز نظره على الفرد ككيان مستقل ومعزول عن محدداته الاجتماعية — الحضارية من جهة ، وحين يعتبره مجهزا ومكونا بواسطة الدينامية الداخلية لوظائفه الدافعة من جهة اخرى ، فانه يميز بين كيانين ميتافيزيقيين : الفرد والمجتمع » . (6) الفرد من حيث هو كائن نرجسي ميال الى التمحور على ذاته والى الاكتفاء بها في غير علاقة اجتماعية تاريخية بالاخرين ، والمجتمع من حيث هو تراكم عددى لافراد يحكمهم قانون العدوى الانفعالية والتقليد والخضوع لسلطة الاب الحاكم ، دونما تصور لبنية العلاقات التي تميز هذا المجتمع .

ان مقولة الصراع ثابتة وقائمة بالفعل ، بين كل مستويات البناء الاجتماعي ، ولعلها ابرز ما يميز الحياة الاجتماعية ، ولكن نقلها من سياقها الاجتماعي الى ثنائية وحيدة متعالية : الفرد والمجتمع ، عبارة عن تجريد للصراع الاجتماعي من اطرافه الحقيقية ومن معناه واهدافه ، وتحويله من صراع تاريخي الى مجرد صراع نفسي . ان هذا النقل يجعل الشجرة (التعارض بين الفرد والمجتمع) تحجب الغابة (الصراع الاجتماعي) عن الناظر . ولعل التعارض الاول ليس في اغلب الاحيان الا صدى باهتا للتعارض الثاني الذى هو تعارض اساسي وشامل .

الـــوعـــي :

لعل الاسهام الرئيسي لفرويد في الثقافة المعاصرة هو مفهومه عن الوعي . فقد قلب هذا المفهوم التصورات المتوارثة منذ عصر الانوار عن قدرة العقل وشفافية الوعي . وقد جاء هذا المفهوم ليثبت ابتعاد الانسان من ذاته وانفصاله عنها بحاجز من اللاوعي والاهواء الدفينة ، وليقلب سلطة العقل المزعومة كاشفا عن آخر العقبات امام عقلانية مزهوة بذاتها. وبذلك تم قلب كوجيطو الفكر الواضح المتسلسل والمعتمد على البداهات والمنتقل من ابسط الافكار الى اكثرها تعقدا . ليست المعرفة ولا الوعي فعلين مباشرين بل هما من الدرجة الثانية ، لانهما يقتضيان تصفية ما يعلق بالمعرفة المباشرة من اهواء واسقاطات ورؤى ذاتية . ان غياهب اللاشعور ، تلك التي ظلت مجهولة ومتجاهلة من طرف المفكرين تحول

دون حضور الوعى امام موضوعه ودون شفافيته . لقد اثبت فرويـــد ان الوعى كثيرا ما يكون زائفا ، لانه قد يكون مجرد رموز تخفى وتقنع رغبات ودوافع لا شعورية . وبالتالى فان ما يخيل الينا انه وعى وعقل لن يكون سوى سراب من اللاوعى . وتتوقف درجة استواء الشخص على قدرتـــه على تحويل العمليات اللاشعورية الى عمليات شعورية واضحة ، وعلى قدرته على اخراجها من اللاوعى لتندمج فى نور الوعى . وحين يتم ارهاق ميكانيزم اللاشعور (فى تصوره الدينامى) تحت تأثير الكبت المستمر تنفجر الاعراض المرضية ويسقط الشخص تحت طائلة علة نفسانية . وفى هذه الحالة يتلخص جوهر المنهج العلاجى التحليلى فى « اخراج اللاشعور الى حيز الشعوز » الواضح ، أى التخفيف من وطأة وثقل اللاشعور بقـــدر الامكـــان .

ان فرويد يبدو فى الظاهر نصيرا للاعقل ، ويعرف عنه انه قد وجه أكبر الضربات للعقل . بيد ان الحقيقة عكس ذلك تماما . فبصدد نظرية الوعى يعتبر فرويد سليلا لعصر الانوار وعلمويا (والعلموية Scientisme سليلة عصر الانوار) وذلك بتسليط « انوار العقل » على « على غياهب اللاعقل » واكتشاف مجاهله . ان وعى اللاعقلانى شرط وخطـــوة نحـــو العقلانية . وما يؤخذ على فرويد ليس اثباته لواقع وجود شرائـــح مـــن اللاوعى تحت سطح الوعى لان ذلك واقع علمى تؤكده الملاحظة والمعالجة التحليليان ، بل ميله الى الاعتراف بأن انوار العقل لا يمكن ان تبدد مطلقا حلكة اللاعقل (7) وان التعارض بينهما مباطن للنفس ذاتها .

يرى فروم ان فرويد ليس سليل الانوار فقط ، بل هو المتأثر اكبر التأثر بالروح الشكية للقرن العشرين . فهو يمزج بين عقلانية الانـــوار وريبية القرن العشرين جدليا (8) . لقد كان فرويد عقلانيا حقا فى البداية ، يؤمن ايمانا تنويريا بقوة العقل وقوة الارادة . ولكنه منذ بداية تآليفه اخذ يفقد براءته العقلية ويعترف بقوة النزعات اللاعقلانيـــة وبضعف العقـــل والارادة ، ولم يتحمل التعارض بين المبدأين فركبهما تركيبا جدليا فى مقولة اللاشعور . وبذلك فهو مفكر مزدوج الانتماء ، فهو لم ينتصر نهائيا للعقل فيصبح مفكرا تنويريا بالاصالـــة ولم ينتصر للامعقول فيصبـــح محافظا ورومانسيا . بيد ان العنصر الذى يتعين ابرازه هنا هو دعوة التحليـــل النفسى الفرويدى الى اكتساح اللاشعور والى الانتصار عليه واحـــلال الشعور الواضح مكانـــه بقدر الامكان .

نقبل اذن بفكرة وجود عناصر عقلانية وعناصر رومانسية مجتمعية فى نظريات فرويد السيكولوجية . ولعل التفاعل بين هذين العنصريـــن وحضورهما المستمر فى سيكولوجيا فرويد يفسر لنا التعـــارض الشديـــد بين بعض تلامذته بهذا الصدد بل وخروجهم عن فكر المعلم الاول . لقـــد

طور كل من هؤلاء المريدين جانبا من جوانب النظرية الى حدوده القصوى. فأدلر الراسخ فى التفاؤل القصير النظر للفئات الدنية من الطبقات المتوسطة صاغ نظرية عقلانية تفاؤلية لا ترى الا جانبا واحدا من الاشياء . ويونج الرومانسى الذى رأى فى اللاشعور كل قوة الانسان ، اعترف بغنى وعمق الرموز والاساطير اكثر من فرويد الذى قصرت النظرة الجنسية رؤيته . لقد كان فرويد يرغب فى فهم اللاشعور لاضعافه ومراقبته ، بينما كان يونج يرغب فى أن يستمد منه حيوية متزايدة .

تقود نظرية اللاشعور الى نظرة حتمية للانسان . فالانسان ليس حرا لان اللاشعور يحدد سلوكه ، بيد ان هذه الحتمية ليست حتمية مطلقة : فبفضل التحليل النفسى يستطيع الانسان ان يراقب لا شعوره (9) او يستطيع مراقبة لاشعوره عن طريق وعيه الشعورى . ان المجهود التحليلى يظل دوما مجهودا من اجل تحكم الشعور فى اللاشعور والوعى فى اللاوعى ، ويحدد فرويد هذه الفكرة فى الصيغة الشعارية الشهيرة : « هناك حيث يكون الهو يجب أن يحل الانا » .

اما ماركس فيرى ان ماهية الانسان ماهية علاقية واجتماعية ؛ وليست تجريدا فرديا موناديا . وكأن المجتمع والفرد وجهان لظاهرة واحدة . ووعى الانسان تابع للماهية الاجتماعية العلاقية للانسان ، اى لوجوده الاجتماعى ولدوره فى العملية الكلية للانتاج : « ليس الوعى هو الذى يحدد الحياة ، انما الحياة (يقصد ماركس هنا الحياة الواقعية للناس فى المجتمع) هى التى تحدد الوعى » . (10) لا يمكن اذن أن يفهم الوعى الانسانى بتجريده من شرطه ونسيجه اى عملية الانتاج الاجتماعى فنفس العملية التى تنتج الخيرات المادية تنتج الوعى « ان الوعى اذن **نتاج اجتماعى** ، ويظل كذلك ما دام هناك بشر بشكل عام » (11) .

ان وعى الفرد حسب ماركس ، تابع لوضعه فى المجتمع ولدوره فى ميكانيزم الانتاج الاجتماعى ، اى تابع لانتمائه الطبقى ولمشتقات هذا الانتماء (العائلة — المهنة ...) .

وحين نعود بالعمليات المعرفية والوعى الى اسس اجتماعية مادية (اقتصادية) فليس ذلك من باب النزعة الاقتصادية المجردة ، بل لان اساس المجتمعات القائمة الى حد الان هو الحاجة واللامساواة . فالتنظيم اليومى للحياة الواقعية تنظيم اقتصادى اساسا ويفرض حتما اولوية الاهتمامات الاقتصادية . فالفرد يكون بالضرورة اما مستهلكا او موزعا او منتجا ، وفى اكتسابه لاى من هذه الصفات يجد نفسه خاضعا لقوانين الانتاج والتبادل والتوزيع ، التى هى قوانين اقتصادية . وفى نظام يتوفر

فيه اشباع الحاجات بشكل كاف وتتحقق فيه المساواة وينتهي وجود الملكية الخاصة ، فان العوامل الاقتصادية تتراجع الى الدرجة الثانية لحساب العوامل المعنوية والانسانية حتما .

ولكن التحديد الاقتصادى ليس هو التحديد الاوحد ، فهناك العديد من العوامل المحددة الاخرى . والاقتصاد انما يحدد مجريات الحياة الاجتماعية « فى المحل الاخير فقط » على حد تعبير انجلس . ويميل الماركسيون المعاصرون الى القبول بتعددية المحددات . وهذا ما يعبر منه التوسير بالمصطلح التحليلى (Surdetermination) اى التحديد المتعدد العوامل . والعوامل المحددة المتعددة التى يمكن ان تلعب دورا محددا يمكن أن تكون منتمية اما الى البنية الفوقية (بنية القيم — البنية العائلية — مؤسسات سياسية او قانونية ..) أو الى غيرها . لتفسير ظواهر اجتماعية او وقائع تاريخية تفسيرا مضبوطا يتعين مراعاة تعدد وتسلسل وتفاعل العوامل المحددة وذلك تجنبا للسقوط فى علية وحيدة الجانب . وبهذا الفهم تصبح العوامل الاقتصادية عوامل محددة « فى التحليل الاخير » اى عوامل علية ضرورية لكن غير كافية ، بينما تشكل العوامل الاخرى عوامل كافية ضرورية .

هذا المفهوم التعددى للعوامل المحددة يتنافى مع الفهم الانعكاسى لنظرية الوعى كما عرفت الى حد الآن فى المادية التاريخية ، فهذه النظرية فى عمقها ليست ابدا نموذجا انعكاسيا ميكانيكيا ، لان النموذج الجدلى يتعارض كلية مع النموذج الميكانيكى وحيد الجانب (نظرية الانعكاس). الوعى وكل المنتجات المعرفية ليست فقط انعكاسا شمساعيا للشروط الاقتصادية . والعلاقة بينهما ليست هى ميكانيكية الانعكاس بقدر ما هى جدلية التفاعل وتبادل التأثير . ويرى غولدمان ان نظرية الانعكاس ليست الا مظهرا لسيطرة المظاهر الاقتصادية على العالم المعاصر (12) . فهى اذن تعبير عن حالة التشيؤ العام وهى نفسها نزعة مشيأة .

بيد ان عملية الوعى الفردى عند فرويد والوعى التاريخى عندماركس تعترضها عوائق تحول دون وضوح الوعى الفردى ، ودون ظهور وعى تاريخى صادق وواضح . هذه العوائق هى المحتويات اللاشعورية عند فرويد وهى « الوعى » الايديولوجى عند ماركس .

الوعـى الزائف واللاشعور :

اذا كان اللاشعور قوة نفسية خافية ومخادعة ، فهل يمكن ادراجه ضمن مفهوم الايديولوجيا من حيث هى وعى خاطىء او زائف ؟ وما هى صلات القرابة بين هذين المفهومين ؟ .

المقولة الاساسية فى المادية التاريخية هى انشراط كافة اشكال الوعى وكافة اشكال العلاقات بين الناس بالحيز الذى يشغلونه فى عملية

الانتاج الاجتماعى . ولكن ما هى كيفية تأثير الشروط والاوضاع الاجتماعية فى الوعى ؟ . ان علاقة الوعى بشروطه الاجتماعية هى جزء من النظرية المادية التاريخية العامة عن العلاقة بين البنية التحتية والقاعدة المادية (اى نمط الانتاج) والبنية الفوقية الايديولوجية . وبالتالى فان الوعى جزء من الايديولوجيا التى تضم بنيات فوقية ، فهى مجموعة الافكار والمعارف (العلوم ــ القانون ــ الفلسفة ــ الاخلاق ــ الاداب والفنون) والدولة والاسرة والدين . واذا كانت البنية الفوقية تعكس (وتؤثر بدورها فى) البنية التحتية ، فان الايديولوجيا لا تعكس البنية التحتية عكسا صادقا وصحيحا كما لو كانت مرآة صافية الاديم ، بل تعكسها عكسا مشوها ومحرفا . ان ما يميز الايديولوجيا هو كونها وعيا ملحوظا وزائفا . وماركس يستخدم دوما لفظ الايديولوجيا بعامل قدحى ، فهى عنده نقيض الوعى العلمى ، لانها فكر مشوه بفعل الهوى الاجتماعى والانتماء الطبقى . ان الايديولوجيا ، فى المنظور الماركسى ، فكر ضئيل الموضوعية لانه فكر تحزبى وطبقى ، ويزداد تشوها وتشويها بقدر ما تكون الطبقة التى يعبر عنها طبقة سائدة ، لانها تكون حينئذ طبقة محافظة تخشى الحقيقة وتخاف من انكشاف الواقع على حقيقته ، لان فى تعرية هياكل اواقع الاجتماعى تكذيبا لمزاعمها عن العدالة والديمقراطية والتقدم . ان افراد الطبقة السائدة « يدفعون على العموم ، لا شعوريا ، عن مجال الرؤية كل ما هو مضاد لمصلحة الطبقة ، واحيانا يخطئون عن وعى صورة الواقع وقوانين التطور» . (13) فطابع المعرفة الطبقية تابع لتغير موقع ومصالح الطبقة المعنية ودورها فى النظام الاجتماعى : تزداد حظوظ موضوعية المعرفة بقدر ما تكون الطبقة العارفة طبقة صاعدة ، مصارعة . وتتضاءل حظوظ الطابع الموضوعى لمعرفتها وتصبح معرفة شائهة ومغلوطة بقدر ما تكون طبقة محافظة آلية للسقوط فى نظام التراتب الاجتماعى ، فدرجة موضوعية المعرفة تتوقف لا فقط على الموقع الاجتماعى للطبقة ، بل ايضا على درجة حدة الصراع الاجتماعى بين الطبقات . وبذلك يدخل فى التقدير اهمية العنصر المصارع وما يقتضيه الامر من اضفاء صفة مثالية عليه ، والحط من قيمة وقدر الخصم وكفاءاته ورؤاه ، وكذا الحط من قيمة كافة الصراعات الاخرى فى الصراع الاساسى بتجنيد كل المكونات الاجتماعية الاخرى بخدمة الصراع الرئيسى بما فى ذلك الصراع الفكرى والمذهبى .

يبدو من تطور فكرة الايديولوجيا فى النظرية الماركسية ان الايديولوجيا تصبح ذات طابع علمى وموضوعى بقدر ما تكون الطبقة التى تعبر عنها هذه الايديولوجيا طبقة مسودة وذات مطامح تغييرية ، وبقدر ما تطابق مصالحها فعلا لا تصورا مصالح المجموع ، وبقدر ما تجسد

هذه الطبقة عذابات الانسانية ، كما هو الحال بالنسبة للبروليتاريا ، لإنه سيكون فى صالحها آنـذاك تعرية ما هو قائم وكشف القناع عن سوءاته . ان ماركس حين يعتبر الايديولوجيا معرفة ناقصة وشائهة لانها تخفى هوى اجتماعيا ، فهو ينزع عنها جزءا من قيمتها المعرفية ويجعل منها اداة عمل لا مفهوما معرفيا ، ان كل ما هو ايديولوجى فهو مقلوب تصبح فيه المقدمات نتائج ، والمعلولات عللا ، ويصبح فيه النسبى مطلقا والزمنى خالدا (يقارن التوسير بين صفة الخلود فى اللاشعور حسب فرويد والصفة الخلودية للايديولوجية) ، والذاتية موضوعيا ، يقول ماركس وانجلس : « اذا كان البشر وعلاقاتهم يبدون لنا فى كل الايديولوجيا ، **رؤوسهم الى الاسفل** كما فى الغرفة السوداء ، فان هذه الظاهرة تنتج من صيرورتهم الحياتية التاريخية ، تماما كما ان وضع الاشياء المقلوب على شبكة العين ينبع من صيرورتها الحياتية الفيزيائية المباشرة » (14) .

يبدو لنا ان هناك ثلاث عناصر يتعين التركيز عليها بصدد المفهوم المادى التاريخى للايديولوجيا . اول هذه العناصر هو كون الايديولوجيا ضربا من الوعى ، اى تتضمن عنصر وعى . وثانيها عنصر الزيف والقلب اى كون هذا الوعى زائفا ومقلوبا . وثالثها كون هذا القلب او الزيف يمكن أن يكون مجهولا لا من طرف العارف المتلقن للصادرات الايديولوجية . هذه العناصر الثلاث للايديولوجيا يوجزها قول انجلس فى رسالة الى فرانز ممرنج بتاريخ (14 يوليوز 1893 م) : « ان العملية الايديولوجية عملية يقوم بها المفكر المزعوم **عن وعى** . ولكن **بوعى خاطىء** . ان القوى المحركة الحقيقية التى تحركه **تظل مجهولة** من طرفه ، والا لما كانت عملية ايديولوجية » (15) . الشرط الضرورى حسب انجلز اذن لاعتبار عملية ما عملية ايديولوجية هى أن تظل الدوافع الحقيقية خفية عن صاحبها ، بينما يقدم فى الايديولوجيا دوافع وتأويلات اخرى زائفة وغير حقيقية ، على ان تظل مجهولة لا فقط الدوافع الحقيقية بل حتى الطابع المحرف والمزيف للدوافع المقدمة فى الايديولوجيا .

ان الوعى الايديولوجى ، من حيث هو وعى زائف ، فهو شبه وعى ولكنه غير واع بذاته ، اى يتضمن عنصرا لا شعوريا . تتضمن الايديولوجيا قطبين متصارعين : وعيا زائفا ، وعدم وعى بزيف هـذا الوعى . واذ يستطيع المفكر ان ينتقل من لحظة الوعى الزائف الى الوعى بزيف وعيه فان وعيه يصبح وعيا اكثر موضوعية .

أن التقنيات والطرائق الفرويدية المتعلقة بالتعبير المزيف تلك التى طبقها فرويد فى تاويل الاحلام ، يمكن ان تقيدنا فى فهم العملية الايديولوجية وذلك بنقل هذه المفاهيم من مستوى اللاشعور الفردى الذى طبقت فيه

اول الاسر الى مستوى جماعى . فكما ان الحلم هو حارس نوم الانا فان الايديولوجيا هى حارس نوم مجتمع (او فرد او طبقة) وحارس نـوم تطابقه مع ذاته تطابقا دائما يحول دون استيقاظ ثورى (16) . أن نتيجـة التقاء المفاهيم المادية التاريخيه مع الطرائق الفرويديه هى نزع الصورة المثالية (حول شفافية واستقلال وعلية) الايديولوجيا والفكر عامة . فكل ايديولوجيا تفكر فى ذاتها حسب النموذج المثالى حين تعتبر ذاتهـا شيئا مطلقا وحين تتجاهل قوانين الانتاج الايديولوجى . نتيجة هذا الالتقاء هى توضيح عدم شفافيه الايديولوجيا لان كل ايديولوجيا لا تقوم ولا تسير الا مع اخفاء مدلولها الحقيقى ، الذى هو مدلول ذو صله بالواقع ، واثبـات عدم استقلالها لان ما يمسكها فى عمقها هو شروطها الحضاريه ووظيفتها الاجتماعيه ، كما يقود هذا الالتقاء الى اثبات لا عليـه الايديولوجيـا لان القوه الحميميه للايديولوجيا تاتى من القـوى الواقعيـه التـى ليسـت الايديولوجيا الا تعبيرا رمزيا عنها (17) .

وهناك وجه اخر للايديولوجيا يتمثل فى عدم اغفاله ذلك انها بالاضافه الى ما سبق ليست فقط تعبيرا مشوها عن واقع المجتمع ، بل انها جزء بنيوى من المجتمع ، جزء ذو وظيفه دفاعيه من حيث ان الايديولوجيـا تلبيه موهومة لحاجات ورغبات لا تسمح بها فعلا علاقات الملكية السائدة، او هى تعويض سيكولوجى عن حرمان اجتماعى . ان الايديولوجيا مفـوم بنيوى من مقومات طبقه او مجتمع ما ، ولخاصه الدفاعيه ، بالاضافه الى كونها — من الناحيه المعرفيه — « معرفـــه » مشـوهـــه عنه . ان بعض التعميات والمقاييس التحتيه (مثل التعبير المزيف — التبرير) يمكن ان تسهم فى توضيح علاقه البنيه التحتيه بالبنيه الفوقيه وفى فهم وظائف بعض مكونات البنيه الفوقيه . وقد اشار بعض الماركسيين المحدثين الى الطابع « اللاشعورى العميق » للتجربه الاجتماعيه المعاشه ، وذلك تحت تاثير اتجاه تحليلى معين (لا كان) . فنحن نجد التوسير يعقد مقارنه بين مـا هو اقتصادى وما هو لا شعورى دون ان يكون هناك تطابق تام بينهما. فالعنصر الاقتصادى عنده ليس حضورا بل احاله ، وهذا يذكر بمفهـوم السببيه المجازية عند لاكان (18) . يقول التوسير : « لقد اتفق على القول بان الايديولوجيا تنتمى الى منطقه « الوعى » . ويجب الا تغرنـا هـذه التسمية ، التى تبقى ممسوسة بعدوى الاشكالية المثالية السابقة لماركس وفى الحقيقه فان الايديولوجيا ضئيلة القرابة بالـ « وعـى » ، هـذا اذا افترضنا ان لهذا اللفظ معنى واحدا . ان الايديولوجيا فى عمقها لا شعورية، حتى فى الوقت الذى تتقدم فيه (كما هو الحال بالنسبة للفلسفة السابقة على ماركس) على صورة واعية . ان الايديولوجيا حقا مجموعـة مـن التمثلات : ولكن ليس لهذه التمثلات فى اغلب الاحيان ايـة صلـة بالـ

الوعي » ، انها في الاغلب صور ، واحيانا مفاهيم ، ولكنها لا تفـــرض نفسها على جمهرة الناس الا على شكـــل بنيـــات دون ان تمـــر بـــ وعيهـــم » (19) .

وعند بولانزاس Poulantzas نجد ان العنصر الاقتصــــادى « هـــو الغائب الكبير ، الذي لا يسيطر عليه ابدا من حيث هو غائب ، تخفيـــه باستمرار مجموعات المحددات مـــن المستــويـــات الاخرى ، والذي لا يلتقط ابدا في موقعه الخاص ، ولكن دائمـــا متخفيـــا في مجمـــل الحقل المعقد » . (20) فالعنصر الاقتصادى ، الذي هو اشبه ما يكـــون باللهـــو عنصر غير متشعور به شعورا واضحا اذ يرتدي اقنعة مختلفة ويـــزاوج مستويات واشكال تعبير اخرى . فهو يسود كل اركان البنية الاجتماعيـــة ولكنه كثيرا ما يعبر عن نفســه تعبيرات مجازية لا تعبيرا صريحا .

ان العلاقات الاجتماعية والانسانية ، والقيم ، والافكار السائدة في مجتمع اجتماعي معين تلقن عمليا ويوميا للافراد وترسخ في اذهانهم بطريقة لا شعوريا من طرف الافراد الذين يتقدمون الى السوق لشراء سلع » (21)
لا شعوريا من طرف الافراد الذين يتقدمون الى السوق لشراء سلع » (21)
وبهذا ترسخ البنية والقيم الاجتماعية في لا شعور الافراد . وهذا يجيز لنا اعتبار اللاشعور جزءا من البنية القومية اي جزءا من التراث العـــام للقيم والتقاليد وانماط السلوك المترسخة والتي لا تنفك عن الخضــــوع لقانون الارتباط بالبنية العامة للمجتمع . ونمثل اللاشعور بهذا الاعتبـــار كأكبر اجزاء الايديولوجيا الخفية والكامنة . وقد سبق ان اشارت روزا لوكسمبورج ، انطلاقا من مقدمات ماركسية ، الى الانفصام القـــائم بين الشعور واللاشعور قائلة : « ان اللاوعي يسبق الوعي . فمنطق العملية التاريخية يسبق المنطق الذاتي للكائنات الانسانية التي تشارك في عملية الانتـــاج . » (22) .

واخيرا يبدو لنا ان تمييز مانهايم بين معنيين للايديولوجيا احدهمـــا معنى خاص والآخر معنى عام ، يمكن ان يفيـــد في توضيـــح بعض نقط الالتقاء بين التحليل النفسي والمادية التاريخيـــة . فالمفهـــوم الخـــاص للايديولوجيا مفهوم جدالي (Concept Polémique) بينما يكون المفهـــوم العام مفهوما بنيويا (Structurel) في المفهوم الخاص نرى في ايديولوجيا الخصم تضليلا وتزييفا لا شعوريا تحركه دوافع واعتبارات مصلحية ذاتية خفية . بينما يقوم المفهوم الشامل او البنيوى على تبديل زاوية الرؤية او مستوى الملاحظة . فالواقع الاجتماعى يدرك ادراكا مختلفا حسب موقع الملاحظ وحسب زاوية النظر . ويقصد بهذا المفهوم طابع البنية العامـــة لنمط تفكير عصر او مجموعة اجتماعية او طبقة مثلا . يمدنـــا المفهـــوم الخاص للايديولوجيا بعناصر وصل بين اللاشعور الفرويـــدى والوعـــى

الجماعى الزائف : فهو يعنى الافكار والتمثلات التى تتميز بأنهـا تخفى بدرجه او باخرى ما ليس فى مصلحة صاحبها ان يعرفـه حقا . وهـذا يعطى امكانيه التزييف والاخفاء الغريزى للواقع ، وتضليل الاخرين عن الاوهام التى يكونها عن نفسه . فهذا المفهوم عن الايديولوجيا لا يختلف الا فى الدرجة عن الكذب الصراح والبسيط . (23) بيد ان المفهـوم الخـاص للايديولوجيا يتضمن نوعا من النية وسبق الاصرار على التزييف والكذب المصلحى أى يتضمن وعيا شبه مقصود بسوء النية والتزييف (24) بينما كنا راينا مع انجلس ان العملية الايديولوجية تتذبذب بين الوعى الواضـح واللاوعى ، بين القصد وغياب النية ، بل يمكن ان يكون عنصر اللاوعى فيها هو العنصر الغالب .

والخلاصـة ان التحليل النفسى مصاب بعمى اجتماعى بسبب اهماله لدور الشروط الاجتماعية ولتأثير البنية العامة للمجتمع على البنيات الصغيرة المشتقة . كما انه ينقل مركز الدينامية الاجتماعية من المجتمع ويضعها بين كيانين مجردين هما الفرد والمجتمع . ولكن النظرية التحليلية عن الوعى يمكن ان تستفيد وتفيد من الماركسية ، فاستفادة التحليل النفسى من المادية التاريخية يمكن ان يؤدى الى ربط الوعى الفردى بالوعى التاريخى واستفادة المادية التاريخية من التحليل النفسى يمكن أن تؤدى الى تبين مسالك الوعى الايديولوجى الزائف فى نفوس الافراد . كما ان التقنيـات التحليلية عن التعبير الزائف يمكن أن تفيد فى توضيح علاقة البنية التحتية بالبنية الفوقية ، ويمكن ان تبرز كيفية ترسخ البنية العامة للمجتمـع فى لا شعـور افـراده . وبصـدد نظـريـة الوعى والايديولوجيا يمكـن ان يكون التفاعل بين التيارين تفاعلا بناء .

هـوامش

1 Freud : Malaise... Op. cit. F. 20

2 Ibid. P. 30

3 G. Mendel : La révolte contre le père. Parais PUF. (1969) 2ème édition. P. 139

4 Ibid. P. 141-42

5 J. Israël : L'aliénation... Op. cit. P. 31

6 B. Muldowrf : «Les communistes et la psychanalyse. In : La nouvelle Critique. N° 30 (19...) P. 19

7 G. Mendel : La révolte... Op. cit. P. 184

8 E. Fromm : La crise... Op. cit. p. 69

9 Ibid. P. 72

(10) ماركس وانجلس : الايدينلونجيا الالمانيـة . ترجمـة : ج ، طربيشى . دار دمشق 1965 ص : 20 .

(11) نفس المرجـع ص : 26 .

12 J. Israêl : Llaliénation... Op. cit. p. 530

13 A. Schaff : «MarXisme et Sociologie de la connaissance» In : L'homme et la société. N° 10 (1968) P. 141-2

(14) ماركس وانجلس : الايديولوجيا الالمانية . الترجمة العربية المذكورة ص : 20 (الابراز من طرفنا) .

(15) (الابراز من طرفنا) .

16 E. Borne : «Idologie et philosophie». In : Les idiologies dans le monde moderne. D.D.B.P. 78-9.

17 Ibid. P. 79

(18) جان ماری اوزياس وآخرون : ما هی البنيوية . الترجمة العربية دار اليقظة دمشق ص : 143 .

19 L. Althursser : Pour Marx. (Paris Maspero) p. 239-40

(20) عن : اوزياس : ما هی البنيوية . ص : 143 .

21 H. Dahmer : W. Reich, Freud et Marx. In : Les temps modernes n° P. 387.

22 E. Fromm : «La contribution de Marx.!. In : La crise Op. cit. P. 107

23 A. Schaff : «Le Marxisme e tla Socioogie de la connaissance.» In : L'homme et la Société : N° 10 (1968).

24 Ibid. p. Vor aussi : J. Maquet : Sociologie de la connaissance. Ed. de l'institut de sociologie de l'université libre de Bruxelles. 1969.

أزمة ثقافة.. ومثقفين

د . عبـــاس الجـــرارى .

ملخص المحاضرة التى القاها عباس الجرارى بنادى النطاق الثقافى فى مكناس بدعوة من فرع اتحاد الكتاب وجمعيـــة البعث الثقافى وفى اطار موسمهما المشترك لعام 1974 .

تعتبر الثقافة من حيث تركيبها ومكانه فى المجتمع بنية فوقية لـــه او هى احدى بنياته الفوقية . وهى مع ذلك غير منفصلة عن البنيات التحتية التى تساهم بقوه وفعالية فى تكوينها وتزويدها فى اخصاب واغناء يطبعانها ويجددان ملامحها ، انطلاقا من تفاعل وتصاهر تنشأ عنهما علاقة جدلية تلقائية تربط الثقافة بمختلف البنيات المكونة لها ، وتولد فيها طاقـــات وامكانيات وقدرات تستطيع بها ان تكون خلاقة وفعالة وفى ايجاب على الدوام . واذا كانت هذه السمات التى تحدد دور الثقافة ، فهى من قبـــل ومن بعد تحدد طابعها المميز لها والذى يجعلها بنية نكـــاد ان تكـــون لا فوقية ولا تحتية ، فضلا عن ان تكون انعكاسا مباشرا لغيرها من البنيات. والثقافة — حتى وهى تكتسى هذه الملامح — لا يمكن فصلها عن المجتمع الذى يبادلها التأثر والتأثير بواقعه وما يعتمـــل فى هـــذا الواقـــع مـــن حركيـــة وتجـــدد .

ولو نحن نظرنا الى مجتمعنا لكشف لنا واقعه عن انماط متداخلة ، وهى على تداخلها متباينة فى اشكالها متنافرة فيما لها من معطيات اقتصادية واجتماعية بكل ما فى هذه المعطيات من ابعاد تنسحب آثارها على مختلف ظواهر المجتمع ومظاهره .

وليس من شك فى ان هذا التباين معزو الى الخط الذى سار فيه التطور الطبقى فى المغرب ، وهو خط يبدو منحرفا وبعيدا عن الطبيعـــة والوضوح . وهذه حقيقة خلفت نوعا من عدم التماسك الاجتماعى لم يلبث ان انتج تحولا لصالح طبقة معينة .

من هذا المنظور فى التحليل يمكننا ان نسجل ان واقع ثقافتنا يعانى مـــن ظاهـــرتيـــن :

الاولى : اجترار كثير من الترسبات التى تراكمت فى فترات الانحطاط وعلى عهد الاستعمار ، والتى كان ممكنا — رغم تجذرها — ان تستاصل لو ان الذين قاموا على شؤون التعليم والثقافة غداة الاستقلال لم يستهينوا بها وعالجوها بجدية وموضوعية ، بعيدا عن التهريج الذى افضى فى النهاية الى اضافة تراكمات اخرى زادت فى تعميق موطن الداء ، وزادت بالتالى فى ازمانه واستفحاله . وكان طبعيا ان تتيح هذه الظاهرة سيادة الفكر التقليدى — والجانب البالى والجامد منه خاصة — بكل ما فى هذا الجانب من بعد عن العلم والعقل والحرية والابداع ، وبكل ما فيه كذلك من تزييف للقيم الوطنية والانسانية .

الثانية : وهى مترتبة على الاولى ، وتتمثل فى موقف ابناء جيل بل اجيال ما بعد الاستقلال من هذا الفكر وتنكرهم له ورفضهم لاشكاله ومضامينه . وهم فى هذا او بعضه — على حق ، طالما ان هذا الفكر لا يسعفهم فى تطلعاتهم ولا يستجيب لما يعتمل فى عقولهم وقلوبهم من دوافع وحوافز لمعايشة العصر والتفتح على المستقبل . وكان نتيجة لهذا الموقف ان اخذوا — بحثا عن البديل — يلتقطون اى شىء يصادفون ، وبداوا يكتشفون الوانا فكرية كثيرة ، جذابة فى اغلبها ، مغرية بالاقبال عليها بما تتضمن من مفاهيم ونظريات ومناهج ، وبما تفتح لهم من آفاق وبما تبعث فى نفوسهم من نوازع التمرد على كل انواع الوصاية والتحكم . وهم فى نشوتهم بذلك لا يلتفتون الى ما قد يكون فيها من دس وتحريف وتسميم او فرض الهيمنة فى احسن تقديم ، بل هم عاجزون عن ادراك شىء من ذلك ، وهم ما زالوا فى مراحل التكوين الاولى ، لم تتيسر لهم بعد وسائل مثل هذا الادراك . ولم يكن غريبا — والحال كذلك — ان تنشأ فوضى فكرية تمثلها اتجاهات كثيرة جديدة ، ولكنها غير واضحة ولا متبلورة حتى فى اذهان اصحابها الاخذين بها فى انحياز وحماس .

من هنا تصبح الحاجة ماسة الى فكر ينهض بدورين :

اولهما : توضيح هذا الوضع وتنظيره بموضوعية وعلمية .

والثانى : طرح بديل للفكر المزيف .

ويكاد الدور الثانى يستأثر بكل الاهمية ، نظرا لان ظهور ثقافة جديدة — فى المناخ الذى عرضنا — يصبح فى غاية الضرورة والالحاح ، ليس فقط لان هذه الثقافة ستكون بديلا ، ولكن لانها ستكون كذلك المحور الذى يمكن ان تلتف حوله الجماهير . واذا ما تسنى لها ذلك فانها ستستطيع ان تلعب دورا ايجابيا فى المجتمع لاستقطاب طبقاته والالتحام معها فى بوتقة يمكن ان تساعد على طرح المشاكل واستيعابها عاطفيا وعلميا والبحث لها عن حلول .

واذا كان الامر من حيث مبدأ هذه الثقافة لا يثير اى خلاف ، فنه

من حيث ماهيتها يثير كل الخلاف . ويمكن حصر الاراء فى هذه النقاط :

1 — التراثيون السلفيون وهم الذين يقتصرون على التراث العربى الاسلامى فى تعصب وتقديس .

2 — التراثيون الغربيون وهم يقتصرون على نوع آخر من التراث ، يتعصبون له ويقدسونه ، سواء منهم من يدعو الى نقل الفكر الليبرالى او من يدعو الى تبنى الفكر الماركسى .

3 — الرافضون لكل انواع التراث والداعون الى البدء من الصفر ، وموقفهم لا يقل سلبية عن الموقفين السالفين ، لانه يعنى الابداع الكلى وتصفية النفس تاريخيا وحضاريا ، ورفض الذات الوطنيـــة والقوميـــة والانسانيـــة .

4 — الانتقائيون اى الذين يرون ضرورة خلق ثقافة وطنية بأخـــذ الجيد الايجابى من التراث العربى الاسلامى ومن كل الثقافـــات ، مـــع اعتبار الواقع والحاضر واتخاذهما بعدا فى الانطلاق .

والحق ان الحديث عن هذه الاراء اصبح غير ذى جدوى بعـــد ان تكرر وطال ، وبعد ان لاكته الالسنه والاقلام ، واصبحت الدعـــوة الى ثقافه وطنيه امرا يكاد ينعقد حوله الاجماع ، وان شغل المنظرون لهـــذه الثقافه ببعض شكلياتها دون الخوض فى فحواها وتناولها فى العمق . وقد سبق لى ان بحثت فى موضوعها بشىء غير قليل من التفصيـــل ، حيث تناولت فى دراسات منشورة تركيبتها الممكنة وخاصه من حيث الاستفادة من تراثنا للحافظ على خصوصيتنا واصالتنا الموضوعيه ، ومـــن حيث اقتباس مختلف مظاهر النهضه الثقافيه والحضاريه دون الوقوع فى التبعية لهيمنتها ، وانتهيت الى انه لا بد لثقافتنا من ملامح تتيـــح لهـــا التجـــدد والاستمراريه ، ونقتضى ان تكون :

1 — اصليه 2 — معاصرة 3 — واقعية 4 — انسانيـــة
5 — ابداعيـــة 6 — علميـــه 7 — عمليـــه 8 — جماهيريـــة
9 — مسؤولـــة 10 — حـــرة 11 — ثورية 12 — عقديه .

هذا جانب من الازمة ، اما الجانب الثانى فهو : من ينهض بهـــذه الثقافة ؟ والجواب يبدو بسيطا لا يستدعى طرح السؤال ، على اعتبار ان المثقفين بحكم انتسابهم لها مهيأون لهذا الدور . ولكن الحقيقـــة ان هؤلاء المثقفين اصبحوا بواقعهم ومواقفهم يشكلون قضية اساسية مـــن قضايا الواقع المغربى ، لا شك انها تحتاج الى مناقشة وحل حتـــى لا تهدر طاقاتهم وحتى يكونوا ايجابيين .

وتتشعب هذه القضية الى جوانب متعددة : مادية ونفسية وفكرية وتنظيمية . اما الجانب المادى فيتمثل فى الوضع المزرى الذى يعيشـــونه بحكم انتماء معظمهم لاسرة التعليم ، وهى اسرة مقهورة ، سواء فى تأطير

الوظيفة العمومية او فى اعتبار المجتمع الذى اصبح لا ينظر ولا يقوم الا من خلال مقاييس مادية صرف ، ثم بحكم لا مردودية العمل الذى يقدمون، سواء فى مجال البحث العلمى او الانتاج الابداعى او غيرهما من مجالات النشاط الثقافى التى ما زالت تقوم فى بلادنا على مجهودات الافراد وتضحياتهم .

واما الجانب النفسى فيتجلى فى ظاهرتين :

اولاهما : الكبت الذى يشعر به المثقف ، وهو ليس دائما مفروضا عليه من الخارج ، بل هو فى حالات كثيرة منبثق من ذاته ، اما بدافع مواضعات معينة ، واما بتأثير من عقد ومركبات .

والثانية : عدم امكان المثقف تنفيذ افكاره وآرائه ومثله نتيجة حرمانه من ممارسة عملية التسيير او المشاركة فيها على الاقل .

هنا تطرح قضية جزئية ولكنها اساسية وصبغة فى نفس الآن، وتتعلق بالموقف من السلطة . ولعل الدارسين لم يلتفتوا له وظلوا مركزين على موقف السلطة من المثقف باعتبار فعاليته وتأثيره . ولا اريد ان أثيره هنا فقد سبق لى ان طرحته وناقشته فى غير هذا المجال ، ويمكن القول بأن موقف المثقف المغربى من السلطة يسير فى الاتجاهات الاتية :

اولا : التبعية بالنسبة لعدد كبير ، منهم من يعمل بصدق واخلاص بحكم التزامه الوطنى ، ومنهم من يعمل لمجرد الرغبة فى تحقيق مصالحه بانتهازية واستغلال .

ثانيا : القطيعة عند البعض ، وهو موقف سلبى مدان حين يصدر عن ذوى الكفاية الذين يتخذونه لاختلاف فى الرأى ، ويكاد يكون غير موجود. اما حين يصدر عن العاجزين الذين ليس لهم ما يشاركون به — كما هو الغالب — فهو مجرد تهريج وتوهم وتستر لاخفاء النقص وعدم القدرة.

ثالثا : اللامبالاة ، وهو اكثر سلبية من السابق ان جاز اعتباره موقفا . وهو منتشر بكثرة فى فئات معينة ، وخاصة بين اساتذة الجامعة المأخوذين بالبحث العلمى ، وبين اصحاب المهن الحرة كالمحامين والاطباء ومن اليهم ممن غدوا — كالخبراء الاجانب — يعيشون لمهنتهم وما تدر عليهم من مال ، منفصلين عن الجماهير ومتحللين من اى التزام .

رابعا : الانتقاد الموضوعى ، وهو موقف وطنى وايجابى ، لا شك انه يساعد على التصحيح وعلى اغناء التجارب وعلى طرح المشاكل الحقيقية وايجاد الحلول لها ، وعلى تضييق الهوة الفاصلة بين الممارس والناقد وتقريب مواطن الالتقاء ، فضلا عن كونه ينم عن احساس بالمسؤولية والقدرة على تحملها ، ولكنا لا نصادفه الا عند قلة .

وينتج عن هذه المواقف فى مجموعها ان الثقافة تحافظ حقا على استقلاليتها وتحمى من الذوبان والامتصاص ، ولكنها تنحصر فى اطار

يبعدها — او يكاد — عن المدار العام الذى تتحرك فيه دوالب الدولة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، مما يترتب عنه تقلص فى العمل الثقافى ، لا سيما فى المجالات التى لا يستطيع ان ينهض بها الافراد كالنشر عامة ، وفى نطاق التراث خاصة ، كما يترتب عنه تخلف عن امداد حركة النمو فى البلاد ، بل تخلف حتى عن مسايرتها . وهذا ما يحول دون حضور الثقافة الدائم فى الميدان ، ويجعلها تقنع بدور التوعية والتنوير على اصعدة محدودة ، ولا تؤثر بقوة فى مختلف قطاعات المجتمع ، فضلا عن ان يكون لها دور تغييرى فعال .

اذا وصلنا الى الجانب الفكرى الفينا الغموض والفوضى والسلبية واختلال المقاييس . فالغموض يعتمل فى ذهن المثقف بدءا من تحديد مفهوم الثقافة ، وخاصة حين توصف بالوطنية والتقدمية والثورية ، الى تحديد مهمته فى مجتمعه وادراك ابعاد دوره ومسؤوليته . والفوضى ناتجة عن انتشار العديد من الافكار والمذاهب والفلسفات التى لم نستطع تمييز الفاسد منها والسليم ، وحتى لو استطعنا لما امكننا هضم ما نختار لاننا لا نتصرف بوعى تام . وهذه ظاهرة لا شك انها تبرز بوضوح وقوة ملامح التخلف الفكرى الذى نعانى منه . اما السلبية المتمثلة فى الرفض وفيما يسمى بالغربة والاغتراب والاستلاب — وهى الاخرى شاهدة على التخلف — فلا يمكن ان تعتبر فى مجتمع كالذى ننتمى اليه الا ظواهر مرضية لا تفضى بمن يعانونها الى غير الانفصال عن المجتمع ثم الى اليأس . واما اختلال المقاييس فينسجم تواجده مع بقية عناصر الازمة ، خاصة وقد اصبح من الصعب على اى واحد — نظرا لكثرة المشاكل وتراكمها وتعقيدها — ان يحدد موطن الداء ويحدد المسؤول عنه .

ويبقى الجانب التنظيمى بعد هذا ، ويكشف تحليله عن ظاهرتين خطيرتين : التمزق الفردى والجماعى ، وعدم الالتحام مع الجماهير . ولعلنا لا نحتاج الى كبير عناء لندرك ان بنية مثقفينا الطبقية والفكرية والخلقية غير متجانسة . والح على جانب السلوك الخلقى الذى يكاد يكون منعدما، فمثل هذا السلوك هو الذى يجعل المثقف ينضم الى غيره ويعانق احلام مواطنيه حتى تتحقق له الزيادة وتتحقق له بهذه الزيادة مستقبليته اى مستقبلية افكاره ومثله . ويكفى أن نجلس الى بعض المنتسبين للثقافة فى لحظات معدودة على رصيف مقهى — وهو المكان الذى يقتل فيه كثير من المثقفين اوقاتهم للاسف — لنسمع الطعن فى الاخرين ، والرفاق والزملاء خاصة ، وتصنيفهم الى تقدميين ورجعيين وغير هذه وتلك من الاوصاف التى لم يعد لها اى مضمون ، ولنرى كيف يكون نقد هذا الانتاج او ذاك ، وكيف يتم اصدار الاحكام القاطعة عليه دون قراءته والاطلاع عليه ، ثم لنستمتع بحديث هذا المثقف عن نفسه معتقدا انه نسيج وحده

وانه رائد التجديد وزعيم مدرسة فى الفكر والادب . وتزيد هذه الانا تضخما عدة اذا كان قد سبق لـــه ان نشر .

والمثقفون عندنا مختلفون على عدة اصعدة :

— التكويـــن العلمـــى نـــوعا ودرجـــة .
— الانتمـــاء الطبقـــى
— الاتجـــاه السيـــاسى
— النظـــر الى المـــاضى
— تحليـــل الـــواقـــع
— التنبـــؤ بالمستقبـــل
— تقـــديـــر الصـــالـــح العـــام
— المصـــالـــح الخـــاصـــة

ويبدو انه انطلاقا من النقطة الاخيرة تتحدد كل نقـــاط الاختـــلاف الاخرى ، سواء ما ذكر ام لم يذكر . ونستطيع ان نميز فى صفوف المنتسبين للثقافة هذه الفئات :

اولا : فئة الذين يقراون ويكتبون ويعملون فى صمت . وهـــؤلاء — وفيهم شيوخ وشباب — ينفقون وقتهم وصحتهم ومالهم فى سبيل خدمـــة ثقافة أمتهم ، ايمانا منهم بهذه الامة ومستقبلها . ثم انهم جبلوا على هذا العمل فهم لا يتأخرون عنه ولا يتقاعسون ، على الرغم مـــن العراقـــل والعقبات ، وعلى الرغم من المثبطات التى ابسطها ان احدا لم يعترف لهم.

ثانيا : فئة الاساتذة الجامعيين ، ومنهم :

1 — علماء يحملون اعلى المؤهلات ، بعضهم يعمل كمثقفى الفئة الاولى فى تضحية وصبر وصمت ، واغلبهم لا يعملون الا فى حدود ضيقة، ويكاد انتاجهم يكون محصورا فى تهىء دراسات اكاديمية لا ترى النـــور الا فى النـــادر .

2 — قوم ساقهم القدر الى الجامعة ، وهم غير مهيئين لها ولمـــا تقتضيه من تكوين فكرى وبحث علمى ، فضلا عن المؤهلات . وقد انيـــح لبعضهم أن يحصلوا على اعلى المراتب الجامعية بدون حق وعن طريق الحظ الذى يستره ظروف المرحلة الانتقالية .

3 — شباب يبذلون او يبذل بعضهم جهودا صادقـــة ليكونـــوا فى مستوى المسؤولية الجامعية على الرغم من الظروف التى يعانون منها — ماديا ومعنويا — والتى من شأنها ان تبعث فى نفوسهم اليأس .

ثالثا : فئة الصحافيين ، ولست اعنى كل من يعمـــل فى ميـــدان الصحافة العظيم فى قدره ومسؤوليته ، وانما اعنى من يشارك منهم فى مجال الادب والفكر . وعلى الرغم من انهم يغنون هذا المجال بكتابات قد لا تخلو من قيمة ، فان بعضهم بحكم تحزبهـــم وتصرفهـــم فى صحيفـــة

ينصبون انفسهم زعماء للفكر والثقافة والادب ، يقولون ما يشاءون ، وينشرون ما يروقهم ويتحدثون عما يعجبهم وعمن يوافقهم ، ويفتحون الباب للاخرين او يوصدونه حسب الهوى وميول النفس وتوافق المصالح او تضاربها . والغالب على هؤلاء انهم لا يقراون وان ثقافتهم مخطوفة بارتجال ، وفى احسن الاحوال من جريدة او مجلة تأتى من هنا او هناك، بالاضافة الى انهم لا رصيد لهم من مؤهلات الا فى النادر وبالمصادفة . ثم هم فى النهاية مرضى بالنجمية ومصابون بمركب الشهرة والعظمة .

رابعا : فئة الشباب ، وفيهم طلاب ومدرسون ، وهؤلاء يقراون الانتاج الحديث والمعاصر فى الغالب ، ويتأثرون به ويتحمسون له ، ويروجونه فيما بينهم باندفاع ، وربما يحاولون تقليده . وقد يتغير اتجاه قراءتهم فيتغير تبعا له اتجاه تفكيرهم الى حد التنقل بين المذاهب المختلفة وهم بهذا وبحكم حداثة سنهم وتجربتهم وانعدام التوجيه السليم ، سواء فى مؤسسات التعليم او خارجها ، ثم بحكم قلة اتصالهم بالتراث العربى والانسانى ، يعيشون اكثر من غيرهم أزمة بلبلة الفكر ويعانون اضطرابه وفوضاه .

نستخلص من هذا أننا ــ نحن المثقفين ــ بحاجة الى ان نقوم بنقد ذاتى حتى يمكننا ان نقوم بتحويل داخلى يلم صفوفنا فى تكامل وتجانس ، وليتسنى لنا بعد ذلك ان نجرى عملية التحويل فى المجتمع .

وتوحيد الصفوف لا يعنى الانصهار الكلى المطلق ، ولكن يعنى الاتفاق على حد ادنى من المقولات والمفاهيم والمواقف . وهو مطلب طالما طرحته بالحاح فى اطار اتحاد الكتاب للخروج به من الازمات التى اعترضته ، والتى انتهت به الى الاختناق فى طريق مسدود .

واذا كنا مشتتين غير قادرين على ان نلتحم مع انفسنا ، فانى اتساءل بخجل : كيف يمكننا ان نلتحم مع الجماهير ؟ وكيف يمكن أن نكون منتجين وفعالين ؟

عباس الجرارى

بإسم البشر، بإسم الحب .

اعتــراف فتـــاة .

طلب يوما فى كراسنودار (1) من تلاميذ القسم النهائى فى المدرسة رقم 36 ، ان يجيبوا عن مجموعة من الاسئلة ، ولم يطلب منهــم ذكــر اسمائهم ، لان ذلك سيضمن الصراحة الكلية . وقد كانت الاجوبة عــن هذه الاسئلة مهمة جدا . ونحن ننشر واحدة منها مع اجوبتهــا ، واثقين بأنها تعطى خلاصة عن المستوى الثقافى والروحى لهذه الفتاة ، التــى لا نعرف للاسف اسمها .

1 ــ مــن هــو كاتبك المفضـــل ؟

ــ ليس لى كاتب مفضل ، لا ادرى . ولعل هذا راجع الى خواص مزاجى ، لكن يظهر لى بكل بساطة ، ان الاعجاب بعمل كاتب وحيــد ، واعتباره هو الافضل مستحيل . هناك كثير من الكتب الجيدة ، وبالتالى كثير من الكتاب الجيدين ، وكل واحد منهم يحركنا بطريقته ، وكل منهم كما يقال « يمس وترا مختلفا من الروح » .

فى طفولتى أعجبت بالمؤلفات الرومانسية ، التى ليست من نــوع « كرامازين » بالتأكيد ، وانما من نوع الكسندر جرين . وقد كتبت ايضا ابياتا شعرية مستوحاة منه ، عن « الاشرعة القرمزية » (2) ، وعــن « الاقاصى الداكنة » . واحب دائما « جرين » ، لكننى لا أكتب شعرا . وعلى العموم ، أحب كثيرا الكلاسيكيين الروس ، وعلى الخصوص ليون تولستوى ، ومن ضمنهم جوركى . وأحب ايضا تشينجيز آيتماتوف . وايضا احب مؤلفات الخيال العلمى حينما تكون جيدة وذكية ، ككتب الاخوة ستروجاتسكى (3) ، وراى برادبارى على سبيل المثال ،

2 ــ مــا هــى مــؤلفــاتك المفضلــة ؟

ــ نوع الجواب نفسه كما فعلت بخصوص السؤال الاول . للاسف، ليس عندى كتاب مفضل استطيع قراءته واعادة قراءته . لكننــى قرأت ــ بالتأكيد ــ بلذة « الحرب والسلام » لتولستــوى ، وثلاثيــة يورى جيرمان ، والاقاصيص المكتوبة من طرف جوركى فى شبابه ، والتى هى

فى الواقع جميلة ومذهلة جدا ، وواقعية جدا ، والياذة هو ميروس ، وعدة اشياء أخرى بدون شك . ويحدث احيانا أن اقــرأ كتبا كثـيرة فى نفس الوقت ، مختارة ما يتلاءم احسن مع حالتى انفسية فى تلك اللحظة .

3 ــ مــن هــو شاعــرك المفضــل ؟

ــ وهذا ايضا ، ليس لى شاعر مفضل على الخصوص . كنت احب سيفيريانين كثيرا واستظهر قصائده أيضا ، لكنها تظهر لى اليوم مضحكة جدا . كنت احب ليرمونتوف ، وحفظت مقاطع كاملة لشكسبير ، هنــاك حيث اكبر قدر ممكن من الاشياء غير المفهومــة ، وحيث ، لست ادرى اين ، من « يشرب الخل » و « ويأكل التماسيح » . واليوم ، احب بعض القصائد لفوز نسنسكى ، وروجديستفينسكى ، وشعراء آخرين ايضا ، وسأظل احب دائما ليرمونتوف وبوشكين ايضا .

4 ــ مــا هــى قصيدتك المفضلــة ؟

ــ « هناك الكثير فى العالم يا صديقى هوراس ... » لكن وا أسفاه، لم اجد لحد الان القصيدة المفضلة بين الكل .

5 ــ مــن هــو عالمك المفضــل ؟

ــ لا افهم كثيرا هذا السؤال . فاذا نظرنا الى العلماء عموما ، نجد ان هناك أسماء عظيمة لروسيين وأجانب . لنشر فقط الى لومونوسوف، وماندلييف ، وبوتليرون ، وآينشتين ، والزوجين كورى ، وفافيلوف ، وكورتشاتوف . وليس لى أنا ان اختار من بينهم جميع من يستحق لقب احسن عالم . فهؤلاء جميعا ، وعلماء آخرون كثيرون قامــوا بالكثــير ، واسماؤهم غير منسية ابدا .

لكن ، اذا سئلت عن العالم الاكثر قربا منى ، فلن أستطيع الاجابة عن هذا السؤال . ولكى اقول الحق ، فانى لم اقرأ مؤلفا علميا مهما أبدا. ولعل هذا راجع الى كونى محدودة الاطلاع ، لكن ، لم يكن لى فى الحقيقة مطلقا الوقت لدراسة أعمال آنيشتين على سبيل المثال ، ويمكن ان أسد هذه الثغرة فى المستقبل .

ويظهر لى انه لكى نكون فكرة محددة عن عالم ما واعماله ، يجب ان نكون فى مستوى القضية ، واليوم ، بناء على التطور الحالى للعلم ، وتخصصه العميق ، يجب اكتسـاب مهنة محددة ، تستطيع ان تساعد فى تكوين فكرة عن الاعمال العلمية الخاصة بهذا الميدان من العلم ، وفى معرفة جوانب ضعفه وقوته .

6 ــ مــا هــو كتــابك العلمــى المفضــل ؟

ــ سبق لى ان اجبت عن هذا السؤال فى النقطة الخامسة .

7 ــ مــن هــو بطلك المفضــل ؟

ــ في التاريخ

اذا كان هذا السؤال يعنى رجال التاريخ ، واذا كان يجب ان ابدى رأيى فيمن هو احق بالتقليد ، فى الشخص الذى بقوة ارادته وعبقريته كان لــه التأثير المشهود فى تطور المجتمع ، والذى بواسطة عبقريته كان موضوعا فى مقدمة عصره ، حاملا النور الى أهل الارض ، فانه بلاريب فلاديميــر

ايليتش لينين . ولا ارى فى التاريخ شخصا خار أحق بالتقليد واخذه مثـلا سـواه
فى الادب ؟
ليست عندى شخصية أدبية اثرت فى الى درجة أن تكون لى الرغبة فى تقليدها فى كل شىء ، وقياس أعمالى على هيئتها ، لانه يظهر لى بكل بساطة ، ان من المستحيل ان نحمل شخصية ما معنا ، كما نحمل يومية مثلا ، ونقارن انفسنا بها . لكن هناك فى الحياة لحظات نكون فيها فى حاجة الى التفكير الجدى فى شىء ما . فى هذه الحالة يأتى كورتشاجيـن (4) وفلاديمير اوستيمونكو (5) الى مساعدتى ، ويعطياننى نصائح مفيدة .
فى الحيـاة المعـاصرة ؟
أعتقد ان بطلا ما يجب ان يكون بطلا حقيقيا ، وشجـاعا وشريفا وعادلا وعاقلا ، ويكون رجلا حقيقيا . وان كان من اللازم تقليد احد ما ، وتنصيبه بطلا ،فلن يمكن الا مع رجل مثالى لا يخدعنا ابدا ، ويبقـى فى مستواه دائما . وهناك أخيار كثيرون ، لكن ينقصهـم شىء مـا دائما . وبالنسبة للرجل المثالى ، فانى لم أقابله ابدا .

8 ـ مـن هـى بطلتك المفضلـة ؟

ـ فى التـاريـخ ؟ جان دارك ، صوفيا كوفاليفسكايـا ، مـارى كورى ، ناديجداكروبسكايا ، زويا كوسموديميا نسكايا .
ـ فى الادب ؟ ليس عندى بطلة مفضلة .
ـ فى الحقبة المعاصرة ؟ لم اقابل ابدا المرأة المثالية .

9 ـ مـا هـو شعـارك المفضـل ؟

ـ يظهر لى ان الشعارات تخلق فقط مـن اجـل الاستجوابـات والتحقيقات . فأنا على سبيل المثال ، لم أضع ابدا على نفسى سؤالا عن الشعار الذى يجب على ان اختاره لاتبعه . وصديقاتى لم يحدثننـى ابدا عن شعاراتهن . ويظهر لى أن الحياة تبنى على اعتقادات ومبادىء محددة، وبعد هذه الحياة ، وانطلاقا منها ، نستطيع أن نجد شعارا ، أى تعبيرا يصوغ فى بضع كلمات ، عمق هذه الحياة نفسـه .
هناك عدة شعارات جميلة ، لكن يصعب الاهتـداء الى الشعـار الرئيسى ، ذلك الذى يعبر عن الكل دفعة واحدة .

10 ـ ما هى الصفة الانسانية التى تقدرينها اكثر ؟

ـ انها حتما الحب الفعال للبشر ، وللانسانية المكافحة ، لا الحب المسيحى الجشع ، وانما الحب الارضى الانسانى ، الذى يمقت الشر ، ويندمج بفعالية فى الحياة ، باسم البشر ، وباسم الحب الذى تمنحهم اياه.

11 ـ مـا هـو هـدف الحيـاة ، ومـا معنـاهـا ؟

ـ هناك كثير من الفلاسفة الذين عانوا كثيرا للاجابـة عـن هـذا السؤال . لكن ما يجهله الشيوخ الشائبون أعمارا والاغنياء تجربة ، لا يلحق أى شر بالشباب النزق . وحتما ، فانى لن اجيب بهذه السهولة ابدا عن هذا السؤال بعد عشرين أو ثلاثين عاما . لكنى اليوم اقول : معنى

الحياة فى السعادة ، وهدفها فى تحقيق السعادة . « خلق الانسان للسعادة، كما خلق الطائر للطيران . » والسعادة دائما امامنا ، وفى أحلامنا التى نحقق ، وان اللحظة التى يصبح فيها الحلم واقعا ، ويصبح حقا من صنع أيدينا ، تظهر لنا لحظة سعادة كاملة . لكن الجوهرى ، هو اننا نضيع السعادة اذا توقفنا دقيقة واحدة . فالسعادة هى العمل للوصول الى هدف وهذا التوق الى السعادة هو علة حركتنا الى الامام . اننا نطير نحو النجوم ، ونذهب الى القطب الشمالى ، ونقفز الى اعماق البحار ، ونبحث من الاطلنتيد . نحن طاقم مركب يندفع بكل اشرعته الخارجية نحو السعادة.

12 ــ ما الذى تفضلين ان تحصلى عليه اكثر فى الحياة ؟

ــ اريد ان اجمع اكبر قدر ممكن من المعارف . ان العالم حولى شاسع ، وهو مهم جدا ، وانا اريد ان اعرف منه على الاقل شيئا قليلا . اريد ان اقرأ جميع الكتب المهمة « الذكية » ، واعرف عدة لغات لاقرأ النصوص فى اصولها لا فى ترجماتها ، حتى يمكن لى ان ادخل بسهولة فى اتصال مباشر مع اشخاص آخرين . أريد ايضا ان تكون لى موهبة فى المهنة التى سأختارها . لو كانت لى موهبة مغنية ، ولو كان لى صوت جميل ، فسأغنى بطريقة تجعل البشر فى غير حاجة ، فى هذه اللحظة بالذات الى اى شىء ، باستثناء أغنيتى ، ولا تترك هناك شيئا أجمل لهم منها .

لو كنت أملك موهبة شاعر ، فاننى احب أن اكتب قصائد بطريقة تجعل البشر يشعرون مباشرة ، بأن لهم هنا كل ما هو مهم .

كل شىء نصنعه يحتاج الى الموهبة ، ويجب أن نهب انفسنا كلية لكل ما نقوم به ، وهكذا تصبح الحياة جميلة جدا .

وتحقيق كل هذه الامانى لا يتعلق الا بى ، وأعتقد اننى سأحصل على كل ما أتحدث عنه هنا .

13 ــ مــاذا تــريــديــن أن تصبحــى ؟

ــ اذا كان السؤال يتعلق بالمهنة ، فاننى أريد ان اكون عالمة احياء، وعلى سبيل الدقة ، عالمة أحياء تدرس حياة الخلية ، عالمة خلايا أو عالمة فى الكيمياء الحيوية .

ان الحياة هى المعجزة الكبرى ، لكننا ماديون . وهــذه الحيــاة (.. ، ..) ركبت من المادة وجزئياتها ، لكن انسجامها على وجه الخصوص يجسم المعجزة . اريد ان اعرف كل هذا ، واكتشف الاسباب والاسباب الاولى . ولهذا يجب معرفة عدة أشياء ، وتعلم عدة اشياء . والجوهرى هو ان من اللازم ان ما تريد فعله سيكون مهما ومفيدا لك .

14 ــ ماذا تريدين أن تصبحى فى الغد القريب ؟

ــ فى الغد القريب اريد ان أتقدم الى مباراة جامعة موسكو . اذا لم انجح فسأشتغل وسأتهيأ لامتحانات السنة المقبلة ، واذا دخلت الى

الجامعة ، فسأصبح طالبة فى كلية علم الاحياء . سأصبح على وجه الدقة اذن ، ما اريد ان أكون .

15 — مـــا هـــى مـــادتك المفضلـــة ؟

هى علم الاحياء على العمـــوم ، لكننـــى أحب ايضا الرياضيـــات والانجليزية . وفى هذه الاحيان لا اكتفى بما نتعلمه فى المدرســـة دائما . واحب أن أقرأ مؤلفات أخرى فى علم الاحيـــاء غير الكتب المقـــررة . وان دروس علم الاحياء مملة احيانا ، وكذلك الانجليزية . وانا اتعلم الانجليزية على الخصوص وحدى ، بعيدا عن البرامج والكتب المقـــررة . واثنـــاء الدروس نقرأ مؤلفات ونصوصا معينة فى المقرر ونرويها . وفى المنـــزل استطيع ان افعل شيئا آخر ، فانا اقرأ المؤلفات التى تهمنى بالانجليزية.

16 مـــا هـــو اهتمـــامك المفضـــل ؟

— هـــو المطـــالعـــة .

17 — مـــا هـــو لهـــوك المفضـــل ؟

— هو السنما ، اذا أمكننا ان نسمى هذا لهوا . وتوجد هنـــاك فى الواقع افلام لاهية ، وهناك افلام جدية وذكية تكون الـــزم لنـــا أيضا مـــن كتـــاب .

من غير هذا ليس لى اى لهو ، فليس لى وقت مطلقا ، ولا ميـــل عنـــدى لهـــذا .

18 — مـــا هـــو موضوع محادثتك المفضـــل ؟

— انه معنى الحياة . وبكل بساطة ، فاننا نريد فى بعض الاحيـــان ان نفلسف ونحل قليلا اباطيل هذا العالم .

نتحدث لنعرف ما اذا كان من الممكن الحصول على ذاكرة عجيبة، واذا كان المخ الانسانى قادرا على جمع كل شىء ، وهل هنـــاك حدود للمعرفة ، ومن اين يأتى اصحاب اليوجا ، وكيف يستطيعون المشى على المعدن المتلهب ويفعلون اشياء اخرى مماثلة (كل واحد منا يقدم فرضا) ونهيىء خططا لدراسة لغة أجنبية فى خمسة ايام آخذين فكرتنا من مجلـــة لتبسيط العلوم ، ونتســـاءل عما اذا كانت البابا — ياجا (ساحرة فى خرافات روسية) سكنت كوكبا آخر (هذه الفكرة ايضا اتتنا بعد قراءة مجلة). واحيانا نناقش افكارنا الشخصية ، المبتكرة جدا ، وننجز مشاريع لمختلف الالات « السحرية » (حديثا جدا ، درسنا مشروع آلة تكتب مباشرة كل كلمة منطوقة . وفى هذه الاثناء لم نذهب الى حد تركيب هذا النوع مـــن الالة ، فقد فكرنا وقررنا اولا الا نتعرض لخطر انفجار غير متوقع ، وعلمنا ثانيا ان هذا النوع من الالات كان قد ركـــب سابقا من طـــرف آخريـــن قبلنـــا بكثيـــر) .

وهناك مواضيع اخرى لمحادثاتنا مثل : المستقبل ، كيف سيصبح

البشر بعد مائة سنة؟ بعد الف سنة ؟ كيف ستصبح الارض ؟هل ستنطفىء الشمس بعد بضعة بلايين من السنين ؟ هل ستقع الحرب الذرية ؟ الا يمنعها البشر ؟ هل يوجد حقا اناس يؤججون الحروب عن وعى ؟ ان كان نعم ، فلماذا ؟ الربح المال ؟ لكنهم يملكون منه الكثير ؟ لماذا يريدون ان يحصلوا على ما هو اكثر من ذلك ؟ ماذا سيفعلون به ؟ انهم لا يأكلون المال على كل تقدير ، هل سيصنعون ثيابهم من الدولارات ؟

نتحدث عن نفسية راسمالى ، ولا نصل الى ادراك كنهها .

وهكذا ، فهناك مواضيع كثيرة ، قد تصل الى حدود اللانهاية .

19 — مـا رأيك فى الحب ؟

— فى كل المؤلفات الادبية التى قرأت ، لا اتذكر واحدا لم يكن الحب من موضوعاته الرئيسية ، ان لم يكن هو الموضوع الرئيسى . ولا اتذكر فيلما واحدا لا يتحدث فيه عن الحب . واننى احب هذه الكتب وهذه الافلام.

لكننى فى الحقيقة ، لا استطيع ان اتحدث عن وجهة نظرى فى الحب، لاننى لم اجربه بعد . انه يمكن ان يوجد ، ويمكن الا يوجد . احيانا اقول لنفسى انه لا يوجد ، والا ، فمن اين يأتى ؟ أن يختفى لحد الان ؟

20 — مـا رأيك فى الـزواج ؟

— دائما تأتى اللحظة التى يريد كل واحد فيها ان ينشىء اسرة . واننا لا نستطيع على كل حال ان نعيش بمفردنا دائما . ونحن نعيش بالتأكيد فى مجتمع ، لكننا فى حاجة الى اشخاص قريبين منا يشاركوننا بفعالية فى كل ما نقوم به .

واعتقد انه يجب ان يوجد حد اعلى من الجدية حينما نتحدث عن الزواج . لان الشخص الذى اخترته يجب ان تعيش معه كل حياتك ، وتقاسمه افراحه واحزانه ، وانه قرار خطير ، فيجب اعتبار مصالح الشخص الآخر ، ومزاجه ، لكى لا يحصل ما يدعو الى التحسر على ما وقع . وعشق النظرة الاولى موجود ، الا انه يجب الا يحدث فى الزواج ، بل فى اسبوع أو شهر بعد التعارف .

21 — مـا رأيك فى العلاقات بين الاباء والابناء ؟

— لا يرى الاباء فى ابنائهم الا اطفالا صغارا . امـا الابنـاء فيرون انفسهم راشدين ، (انا اعرف هذا من تجربتى الشخصية) ويظهر لى ان هؤلاء مثل اولئك مصيبون ومخطئون . اما الازمة بين الاباء والابناء كما فى رواية تورجنييف « آباء وابناء » على سبيل المثال ، فغير موجودة عندنا ولا يمكن ان توجد . وفى بعض الاحيان ، لا يحب الاباء الاغانى فى الحديثة والرقصات التى يرقصها ابناؤهم ، وطريقة حلاقتهم . لكن الموسيقى والثياب ليستا الا الهيكل الذى يشير الى اننا نعيش فى النصف الثانى من القرن العشرين ، وهذه علاماته الخارجية . والاباء سعداء برؤية ابنائهم

يعرفون عدة اشياء ، وهم يغفرون لهم ولعيهم بالاشياء العصرية التى يعتبرونها ضعفا .

22 — ما رأيك فى العلاقات بين الابناء والاباء ؟

— ان الابناء ملزمون بأن يغفروا لابائهم عدة نقط ضعف ، مثل اعتبارهم اياهم اطفالا .

وبعض الابناء يسمون آباءهم « شيوخا » وان هذا لمبتذل واخرق ، وقد تعلموا هذا من عدة افلام رديئة . لكن مثل هؤلاء الابناء قليلون ، فانا على سبيل المثال لم التق ابدا بأى واحد منهم ، لكننى سمعت من يتحدث عنهم .

23 — ما رأيك فى المدرسة ؟

— يجب أن اعانى مبدئيا من شعور مغرق فى العاطفية بالضياع الذى لا يعوض ، لاننى سأخرج من المدرسة . لكننى اريد ان اخرج من المدرسة باقصى ما يمكن من السرعة لابدأ حياة مستقلة .

24 — هل الخلود ضرورى ؟

— هذا يتعلق بنوعه . فاذا افترضنا امكانية خلود جسدى ، مع حلول فى « هيأة » اخرى ، فان الخلود فى هذه الحالة غير مجد بالتاكيد. ومن جهة اخرى ، ان كان خلود ، فلن يكون موت ، وبالتالى لن تكون هناك حياة ، وهذا شكل غير مفهوم لوجود المادة . لا تظنوا اننى لا رغبة لى فى الحياة ، فهذا سيكون جيدا لو لم يكن هناك موت ، لكن الاشياء صنعت هكذا . واذا كانت الحياة ابدية ، فلن نتمكن من التوق الى اى شىء ، ولن يكون هناك تقدم ، ولن يكون هناك اى شىء .

اما بالنسبة لخلود الروح ، فالذكرى التى لنا من الراحلين ضرورية، والا فما جدوى الحياة ؟ وفى يوم ما ، سنضع على انفسنا هذا السؤال مع الشاعر مارتنيوف :

ما الاثر الذى ستترك ؟
أأثر على بلاط نمحوه .
شاخصين اليك بعين خبيثة ؟
ام هذا الاثر غير المرئى ، القوى .
الذى تتركه فى الارواح لسنوات عديدة ؟

25 — هل يجب الاهتمام بالسياسة ؟

— هناك فيلم اسمه « ربانية بالمنامة » وهو فيام وثائقى ، خصص لطيارين امريكيين كانت طائراتهم قد اسقطت فى التراب الفيتنامى ، واصبحوا اسرى .

وقد اراد مؤلفو الفيلم أن يبرزوا نفسية هؤلاء الطيارين ويظهر لى انهم نجحوا فى ذلك . سئل بعض الامريكيين : هل تهتمون بالسياسة ؟

فأجابوا بلا ، فلا يعنيهم من يحاربونه ، ولا باسم ماذا ، ولا لماذا يقتلون الناس ، فالسياسة لم تشغلهم ابدا ، لكنهم كانوا مرغمين على ان يصبحوا اداة السياسة فى بلدهم .

وانا لا ادرى ان كذبوا ، او كانت مشاكل السياسة هــذه حقا لا تهمهم بعمق . وفى حقبتنا هذه ، يجب على كل منا أن يهتم بالسياسة ، فقد اصبحت مشكلة شخصية لكل واحد منا ، اذا نحن لم نرد حربا جديدة.

ترجمة : محمد العلمى

هــوامش

مترجمة عــن ŒUVRES, ET OPINIONS ، العــدد رقــم 146 (فبراير 1971) ، ص 156 — 163 .

(1) كراسنودار : مدينة فى الاتحاد السوفياتى (القوقاز) م. م. ع .

(2) الاشرعية القرمزية : رواية الالكسندرجرين . م. م. ف .

(3) انظر : « الاثنين يبدأ السبت » للاخوة ستروجاتسكى فى «اعمال وآراء » العدد 113 سنة 1968 .

(4) بافيل كورتشاجين : بطل رواية « والفــولاذ أصبــح مسقيا » لنيقولاى أوستروفسكى . م. م. ف .

(5) فلاديمير اوستيمونكو : بطل ثلاثية « القضية التــى تخدم » ليورى جيرمان . م. م. ف .

المسرح العربي والفكر الأسطوري .

عبد الكريم برشيد .

فى الماضى كان الشاعر يمسك الرباب وينزل الى الاسواق من اجل ان ينشد الناس شعره وفنه ، وبهذا تم التواصل الحق بين المبدع وجمهوره ، نفس الشيء يمكن أن يقال بالنسبة للفنانين المتجولين الذين يشدون الرحال الى القرى والاسواق والمداشر النائية ، وان اهم ما يميز هذا العصر هو اعتماده المطلق على « المعلبات » فكل شيء اصبح جاهزا وباردا حتى الثقافة والفنون ، لقد اختفى الكاتب خلف اوراق باردة خرساء كما اختفى المغنى وراء اسطوانات جامدة ، وأن « تعليب » الثقافة والفنون قد باعد بين المبدع وجمهوره ، نفس الشيء يمكن ان نقوله عن الفلسفة فسقراط علم الناس الفلسفة وهو يمشى فى الاسواق ، كما ان العرب قديما كانوا يعتبرون اخذ العلم من الاوراق شيئا مهينا للمثقف ، لاجل هذا اذا كان لا بد من تحقيق التواصل بين المبدع وجمهوره ، واذا كنا نكثر الكلام عن التغيير فيجب ان نعلم اولا ان الثقافة التى لا تنزل الاسواق والقرى والاوراش لا يمكن ان تثمر اى تغيير كيفما كان ثقافة «الاوراق» ستبقى ابدا ثقافة خاصة لا تمسها الا النخبة « المشلولة » اما الطاقة التى تملك وسائل التغيير فستبقى دوما على الهامش ، ومن هنا تنبع قيمة المسرح كأداة تحقق التواصل بالجمهور العريض ، فالمسرح لقاء مباشر حى يملك اكثر من لغة واكثر من حديث ، ولكن الحديث عن المسرح يستوجب بالضرورة طرح الكثير من الاسئلة ، اى مسرح يمكن ان يخدم قضيتنا ؟ واى اتجاه يمكن ان يحقق التغيير سواء فى العقلية او الارضية العربية ؟ هذا ما سنحاول البحث فيه فى هذه الدراسة فالمسرح ليس ظاهرة فنية منعدمة الجذور بالفكر وبالمناخ الحضارى العام ، لهذا فان كل دراسة للمسرح العربى يجب ان تنطلق أساسا من دراسة شاملة للفكر العربى ككل وذلك لارتباط الفرع بالاصل .

ـ الانسان العربى بين العشق والتقديس :

لعل الشيء الذى يقلق الانسان اكثر فى كون لامتناه هو شعوره

بالوحدة والضياع ، فلا محدودية الوجود تشعر الانسان بحقارته وتفاهته، لذلك وجد اهل التصوف أن العشق هو خلاص الانسان من محدوديته ومن وحدته وغربته ، وان هذا العشق الصوفى قد اتخذ له وجوها عديده فى فلسفات واتجاهات فكرية مختلفة فالعشق الصوفى معناه ايصال الذات الفردية بالمطلق اما الفلسفة الوضعية فترى ان غاية الانسان هو المجتمع وبهذا فهى تحوله الى موضوع للعشق ، وتقول الماركسية بالدولة وذلك باعتبار انها ذات كبرى يجب ان تذوب فيها كل الذرات الفردية .

فالذات فى نموها تسعى نحو الخلود والخروج من الوحدة الى التعدد وحتى تحقق ذلك فلا بد ان تذوب فى قوة عليا (المطلق . المجتمع . الدولة) فالذات الفردية معرضة للعدم مثلها فى ذلك مثل قطرة من ماء اذا بقيت وحدها جفت واذا كانت فى بحر ضمنت الخلود والوحدة ، فالبحر خالد ابدا كذلك الامر بالنسبة للدولة والمجتمع ، فقد يفنى الفرد ماديا ولكنه معنويا يبقى ما بقى المجتمع قويا متماسكا ، وبهذا يرتبط خلود الذات الفردية وعظمتها بخلود وعظمة الدولة ، والى هذا المعنى يشير الشاعر الروسى ايفتشنكو :

انا لا اقوى على الخلود
لكنه يكفينى
ان بقاء روسيا
يعنى اننى موجود

هذه نظرة صوفية قائمة على العشق ولكن موضوع العشق قد تغير بالنسبة لما كان عليه من قبل ، فعوض المطلق اصبحت الدولة ، فالصوفية الجديدة لا ترتبط بغير الانسان والارض والاقتصاد .

فالعشق يفرض بالضرورة وجود اتحاد الطرفين فى مميزات مشتركة اذ لا يعقل وجود وحدة من اجزاء متباينة ، فأبسط قواعد الجمع تحتم ان يكون المجموع من طبيعة واحدة فلا يمكن جمع التبر والتبن ولا الذهب والحطب وان ما يلاحظ بالنسبة للانسان العربى هو انه غير موصول الى الارض او المجتمع بسبب ، فعلاقته بالدولة لا تقوم على العشق ولكن على التقديس ، وبهذا يغمر الخوف النفوس عوض الحب .

فالفكر الشعبى مبنى على التقديس والانسان العربى يطبع كل شىء بطابع اسطورى ، فالدولة كائن اسطورى خرافى مثله فى ذلك مثل عالم الجن والملائكة والشياطين وبهذا اكتسبت السياسة فى الفكر العربى ابعادا اسطورية ، فهى مجال محرم مثل العوالم الغامضة الاخرى .

ونجد ان الفكر الاسطورى العربى يقوم مثله مثل الفكر الثورى على التغيير لكنه تغيير طوباوى كما يقوم على التبرير اما من حيث التغيير فاننا نجد ارتقاء الانسان وتجاوزه للواقع المر لا يتم عن طريق مادى حسى

ولكن عن طرق غيبية يلعب فيها السعد الدور الاكبر ، فالتحرر يمكن ان يتم عن طريق : جنود الخفاء والطير الابابيل وعودة المهدى المنتظر ، والفقر يمكن ان يكون علاجه الكنز المخفى فى اعماق الارض أو الخاتم السحرى او مصباح علاء الدين والادعية وسيدنا قدر ، كل شىء يخضع لقدرية ، يخضع لاشياء مسطرة من قبل ، ولذلك فان مصائر الانسان غير مرتبطة بالعمل بقدر ارتباطها باللوح والقلم ، وجبهة الغيب واشياء اخرى خارجية ، ولذلك فان اهم ما يميز هذا الفكر هو انه فكر اتكالى يعتمد على الانتظار لان (المكتوب فى السماء لا يمحوه ماء) ولان (الذى كتب على الجبين لا بد ان تراه العين) قد يعمل الانسان ولكن دعوة مستجابة قد تهدم كل شىء وهكذا يكون الكلام اقوى واشد فاعلية من الفعل .

فالفكر الاسطورى يرتبط بالسماء وبعوالم خفية اكثر من ارتباطه بالارض كما انه فكر غير منطقى لانه قائم على القفز السحرى بدل المشى وعلى طرح مبادىء العلية والسببية وعلى استخلاص النتائج من غير الارتكاز على مقدمات سابقة .

اما التبرير فيقوم اساسا على ان لكل شىء تبريرا يسوغ وجوده ويعطيه المشروعية ، فالفقر قدر مرة وامتحان الآلهى مرة ثانية وفى التفسيرين تبرير للفقر كما ان التمرد والثورة قد ارتبطا بالشيطان ولذا يمكن ان يكون مصير التمرد غير التشرد والمسخ الى صفة اخرى .

ويحاول العالم العربى جاهدا اقامة فكر عربى ثورى يرتبط بالارض والعلم ، ولكن هل يمكن قيام فكر عربى جديد فى ظل العقلية العربية الاسطورية ؟ ثم هل يمكن قيام مسرح عربى خارج الفكر العربى ؟ ان قيام الفكر الجديد يفرض بالضرورة هدم الفكر الاسطورى القديم وذلك على اعتبار انه فكر يخدم مصالح طبقة معينة ، فالتطلع الطبقى يفسره على انه حسد (وعين الحسود يصيبها العمى) كما انه يعمل على تكريس الاوضاع الجامدة عن طريق مجموعة من الامثال والحكم (البس قدك يواتيك) (جوع كلبك يتبعك) (ادهن السير يسير) الخ وان المواضيع التى تستأثر باهتمام الاسطورة هى : الدين والجنس والحكم ولقد ركز العلج (الطيب) على الموضوع الاخير بصفة خاصة وذلك فى تعامله مع الاسطورة ، فقد تكررت فى مسرحه شخصية نمطية مهمة هى شخصية القاضى ، والواقع ان هذه الشخصية لا تكاد تخلو منها اسطورة أو خرافة مما يدل على اهتمام الوجدان الشعبى بقضية العدل ، ويكتسب القاضى — وهو الصورة المصغرة للدولة — ابعادا تحوله الى قدر غاشم يسطر الاقدار اعتمادا على مقاييس مضحكة وهكذا يرتبط الانسان العربى بالحكم ارتباطا يطبعه التقديس لا العشق .

وبهذا اذا نرى ان المسرح العربى محكوم عليه ان يكون (اسطوريا)

فالمسرح اليوناني قد قام على اساس الاسطورة ، فوظيفة المسرح العربى هى التغيير ولكن التغيير يصطدم بعوائق مختلفه يفرزها الفكر الاسطورى ولذلك فان غايه المسرح العربى يجب ان تكون هى تحطيم الفكر الاسطورى ومحاربة الشىء لا يمكن ان تتم الا بنفس السلاح ، فالغزالى قد تحول الى فيلسوف عند ما اراد ان يقوض دعائم الفلسفه ، وكذلك لا يمكن هدم الفكر الاسطورى الا من خلال الاعتماد على الاسطورة .

وان ما يميز الفكر العربى ايضا هو اتسامه بالرومانسية والمثالية والهروبيه ، فالمكان قد تفتت فى نفسية العربى وكذلك الامــر بالنسبــة للزمان ، فالوطن عند (المحافظين) هو (ما كان) وهو عند البرجوازية (ما هو كائن) وعند الثوريين ما (سوف يكون) كما ان الزمن قد اتخذ له ابعادا عديدة فى نفسية الانسان العربى بالرغم من انه وحدة واحدة ، فالانســان العربى قد أعترضته ـــ مثله مثل جميع بنى الانسان ـــ تساؤلات وجودية كبرى حول الحكم من وجوده وحول المــوت والحيــاة والعمــل والخلود والمصير والقدر ، ولقد حاول ان يجــد لهــا حلا بالاعتماد على الفكر الاسطورى فحلل كل شىء من زاوية غيبية تعتمد على النقيضين : ترغيب وترهيب ، ولقد كان ضروريا ان يمر الفكر العربــى بالمرحلــة الاسطورية وذلك باعتبار انها مرحلة لازمت الوجود الانسانى عبر مسيره التاريخى ، وان هذا الفكر قد جاء نتيجة اوضاع اقتصادية واجتماعيــة وسياسية معينة وعنه نشأ التصوف الذى كان فى جوهره رفضا للواقــع آنذاك ، فالتصوف رجوع الى الذات بعد خيبة وعدم انسجام مع الموضوع فالانسان العربى تدفع به دوافع عدة نحو آفاق مكانية وزمانية جديدة ، فهو يقف امام التحديات الداخلية والخارجية موافق ثلاثة :

ـــ الوجــود فى المــاضــى :

ان من طبع الانسان ان يغير شيئا لا يرضيــه ولا يوافــق طبعــه وطموحه ، ولكن ، هل يمكن ان نطبق هذه القاعدة على الزمن ؟ ان الانسان محكوم عليه ان يعيش عصره ولكنه مع ذلك يستطيع ان يعيش فى اكثر من زمن واحد ولذلك فقد يكون حضور شخص فى زمان ما حضورا شكليا ، وكذلك كان حضور اهل الكهف فى المدينة بعد خروجهم اليها ، فعقليتهم وفكرهم وعواطفهم وتصوراتهم كانت تنتمى كلها الى الماضى ، اما ما اصبح فى ملك الحاضر فليس اكثر من صور متحركة تسمع ولا تعى ، وان هذه الصورة يمكن ان تنطبق على جزء من العالم العربى ، فالتحديات الحضارية المنطلقة من الغرب قد اشعرت البعض باننا نعيش فى غير زمننا الحقيقى ولذلك فهناك من رجع الى الكهف ، رجع الى الماضى وامجاده وعظمته ، فعدم التوافق مع حاضر متعفن دفع محافظينا الى معانقة واقع (شبــه اسطورى) يتمثل فى التاريخ (الوجه اللامع منه) والتراث الشعبى (عنترة

ـ ابو زيد الهلالي ـ سيف بن دى يزن) فهذه الفئة لا تعيش الزمن الحاضر وانما تعيش الماضى ، وان وجودها فى القرن العشرين ان هو الا وجود شكلى فقط ، وان الهروب يتم بناء على ان الماضى ـ وكما تقول الكتب ـ كان مزدهرا فى حين ان كل شىء اصبح الآن فى حاجة الى كتابة جديدة والى تقويم جديد ، فالماضى قد تحول الى مرآة تعكس الحضارة والعظمة والقوة وكل ما نفتقده فى الزمن الحاضر ، وتعود الينا من وراء المرآة صور زاهية تملؤها زهوا كاذبا ونخوة جوفاء ، ان ما يعكسه التاريخ والامثال والحكم ليس صورنا نحن وانما هى صور اناس اصبحوا الآن ملكا للتاريخ ، وان الوجود فى الماضى ان هو الا موت وذلك باعتبار ان الميت هو وحده من يملك الماضى دون الحاضر والمستقبل ، كما ان الوجود فى الماضى يقوم على تقديس الموتى والتقديس يزرع الشلل فى السواعد .

ولقد عرف المسرح العربى فى مراحله المتقدمة اهتماما واسعا بالتاريخ وبالشخصيات التاريخية العربية فقدم (صلاح الدين الايوبى ـ طارق بن زياد ـ هارون الرشيد والمعتمد بن عباد وغيرهم ـ) ولقد جاء هذا الاهتمام بالماضى ابان شيوع الشعور القومى ولقد كان له فى حينه اثر كبير فى النفس العربية التى واجهت المستعمر على المستوى الحضارى والسياسى والعسكرى ، ومما يلاحظ على هذا التيار انه كان عامل دفع لا مهربا نحو الاساطير والخرافات والتاريخ من واقع مظلم ، وارى اننا قد تجاوزنا هذه المرحلة الى مرحلة جديدة يجب ان تقوم على النقد والبحث العلمى لا على الاعتزاز الطفولى بالامجاد الغابرة والرومانسية الحالمة ، وان مسرحيات مثل (مولاى اسماعيل) (معركة الملوك الثلاثة ـ المولى ادريس) تقوم هى ايضا على مبدأ (تلميع الماضى) انطلاقا من فكر اسطورى يقوم على التهويل وعلى التقديس .

ـ الوجود فى المستقبل :

اما الفئة الثانية من المجتمع العربى فتهرب نحو المستقبل ، ويتمثل هذا الهروب فى الرجاء والتمنى والاحلام والانتظار والايمان بالغيب والسحر وقارئات الكف والرمل والودع ، كما يتمثل فى الايمان بالكرامات والمعجزات وظهور المهدى المنتظر الذى يتخذ فى الذهن الشعبى صفة المخلص ، وان الاعتقاد بوجود شخص اسطورى يأتى فى زمن ما يجسد رفض الانسان العربى لواقعه المر وتطلعه المستمر الى عالم تسوده مبادىء الحرية والعدالة ، وان الاعتقاد فى وجود هذا الشخص قد تولد فى مجتمع كانت صفته الاساسية هى الظلم الاجتماعى ، ولقد ساعد هذا الاعتقاد الشعبى كل ثائر على استمالة الشعب اليه وذلك لانه كان مهيئا من قبل لظهور المخلص فيه ، وبهذا فقد لجأ الثوار العرب الى محاربة الواقع انطلاقا من الفكر الاسطورى السائد آنذاك .

فالواقع التاريخي الراهن لا يستجيب لطموحنا وتطلعاتنا ، فنحن نحمل مشاريع عدة نحمل واقعا جديدا هو عبارة عن تصورات فقط ، تصورات لا يمكن ان تتحقق الا فى المستقبل ولكن اين نحن من المستقبل؟ و اذاكانت الفئة الاولى من المجتمع تعيش فى (الماضى) فان الفئة الثانية تعيش فى المستقبل ، فهى تسبق الزمن والاحداث لتعيش خارج اطارها الحقيقى وبهذا فان ما يميز هذه الفئة هو الانتظار ويتجلى هذا عبر العديد من الامثلة والحكم (الصبر مفتاح الفرج) (يصبح ويفتح) كما يتجلى فى خرافات عديدة تقوم على تمجيد الصبر والانتظار ، وان الانسان حينما ينتظر ينتصب الزمن امامه كسد منيع ، فراكب القطار لا تهمه الرحلة بقدر ما تهمه نقطة الوصول ولذلك فان المسافة الزمانية بين النقطتين ان هى الا مجرد (زمن ضائع) وكذلك الامر بالنسبة للانسان العربى الذى يعيش على الصبر والانتظار فالحاضر بالنسبة اليه (زمن ضائع) فالحياة الحقة هى المستقبل المنتظر ومن اجل هذا فهو ينفق حاضره بسخاء ليقفز منه الى المستقبل .

وهذا ما يفسر افتقار اعمال هذه الفئة المنتظرة الى المعنى والمعقولية ، فمن ينتظر يجد نفسه فى حاجة الى قتل الزمن كيفما اتفق ، وبهذا يكون ارتياد المقاهى والانغماس الكلى فى الجنس والخمر والحشيش ولعب الورق (والضامة) والتردد على قارئات الكف والحلقة مجرد وسائل متنوعة لقتل حاضر لا يستاهل ان يعاش ، واذا كان التعامل مع التراث يفرض الحذر فان تعاملنا مع الواقع اليومى يفرض الحذر ايضا وذلك باعتبار انه (واقع خادع ، فيخفى خلفه اشكالا من صنوف الواقع ، فالفرح قد يخفى الحزن والرضى قد يكون ستارا للسخط ولهذا كان على المبدع ان يقوم بعملية نقد لا بعماية التصوير لان التصوير يتم بعد تهيىء واختيار للوضع الانسب) 1 .

وكما ينتظر هذا الانسان المهدى فانه ايضا ينتظر المعجزات فهو لا زال يؤمن بقوى خفية تمده بالعون والمساعدة ، ففى مسرحية (حفلة سمر من اجل 5 حزيران) لسعد الله ونوس يدور الحوار التالى :

— لا تجدف فماذا يمكننا ان نفعل اذا فقدنا عون السماء

— فى القديم امطرت السماء على اعدائها حجارة من سجيل

وطيرا ابابيل 2 . •

فهذا المشهد يصور بوضوح الفكر العربى الاسطورى القائم على الغيبيات وعلى الانتظار والاتكال وعلى استخدام الصلاة والدعاء كاسلحة ، ويتجلى هذا الانتظار ايضا فى مسرحية (حليب الاضياف) لاحمد الطيب الطيب العلج فهناك جماعة تنتظر حليبا (اسطوريا) ، وهى لانتظارها تصبح مشلولة عن العمل ، اما افعالها فليست سوى حركات مجانية

نتقد المعنى لانها (احداث يقصد بها ملأ الفراغ الزمنى الـذى يطبـع الانتظـار) .

وانطلاقا من الفكر العربى الاسطورى ظهرت فنون شعبية متنوعة تقوم على اساس الاعتقاد الشعبى فى الغيب والجن والحيوانات الناطقـة والقوى الخرافية الهائلة ، واذا نحن التفتنا الى (الحلقة وجدنا انهـا فى جوهرها تمرد على الواقع ولكن بوسائل غيبية اسطورية ، وان لهـذه الفرجة الشعبية معمارية خاصة ، فهى تتميز بحلبتها الدائرية المفتوحـة من جميع الجهات كما تتميز ايضا بنوعية جمهورها ، هذا الجمهور الـذى يتميز بقدرة كبيرة على التخيل ولهذا فان فراغ الحلبة مـن كـل العناصر المسرحية يضطره الى رسم المناظر والشخصيات فى مخيلته ، كما تتميز ايضا بشخصية الراوى ، ومما يدحض فى هذه الفرجـة ان الراوى فيهـا يختلف عنه فى المسرح الاوربى فراوى الحلقة « يتملق » جمهوره الصغير وذلك لانه مرتبط به ماديا اما الراوى عند بريشت فهو شخص محايد يصف الاشخاص والاحداث عن بعد ، ويظهر هذا (التملق) فى تضخيم الابطال الذين يرتبط بهم الجمهور عاطفيا ، ولقد استغل المسرح المغربى هـذه الفرجة مسرحيا والملاحظ انه لم يتجاوز الشكل الى المضمون مع ان هذا الاخير شديد الارتباط بما سبق ، وقد ظهرت الحلقة فى مسرحيات هـى (ديوان سيدى عبد الرحمان المجذوب) ، الصديقـى و (القـاضى فى الحلقة) . (الارض والذئاب) للطيب العلج وان هذه الفرجة تقـوم على اساس اتصال محكم بين (الشخصيات الروائية) وبين الاشخاص الذين يكونون جمهور الحلقة ، وان الشخصية الوهمية لا تتحرك داخل الحلبة وانما داخل نفس الجمهور ففى خياله تعيش وتتمرد وتثور وتقاوم وتعشق، واذا تساءلنا عن نوعية هذا الجمهور وجدناه من الناس الذين لا عمـل لهم) فهو جمهور يشكله الفقراء والجوعـى والمشردون والعاطلـون ، فهؤلاء جميعا قد اقفلت فى وجههم كل الابواب الا ابواب الخيال ، فذهابهم الى الحلقة هو هروب من عالم مظلم ، من فقر وتشرد الى واقـع خرافى تصنعه الاحلام ويصنعه الرواة (المتملقون) ويقول عبد الله شقرون ان خلفاء الدول الاسلامية كانوا يستغلون الحلقة (كلما استشعروا خطـر الحرب او ارادوا الانحراف بنباهة الشعب لحمله على نسيان هزيمة او لتغطية مشاكل لها اتصال بنظام بسياستهم الداخلية ..) 3 —

فالذى يتابع ملحمة عنترة مثلا نراه وهو يستمع الى كـلام الراوى بكل انتباه ويتابع الرواية بكل جوارحه وشعوره ، يتألم لآلام البطل وينقبض قلبه ويغضب لغضب البطل ويحس بالضيق والاختناق حينما يسمع عن عنترة انه مكبل بالسلاسل ويتنفس الصعداء حينما ينتفض البطل فيكسر القيود ، فالمتفرج يلبس شخصية عنترة ويذوب فيها ذوبانا شبه صوفى،

وفى الوقت الذى يكون فيه الراوى يحكى يكون هو منشغلا بتشخيص ما يسمع ، ولقد رأينا ان الذى يذهب الى الحلقة هو انسان مشرد ، منبوذ وضعيف ، انسان يجد العزاء فى بطولة عنترة الذى يمثل لديه الثورة على المجتمع وعلى التقاليد والقيم البالية والمقاييس المهترئة التى تقيس الانسان بمقياس اللون والاصل والطبقة والمادة ، فهو يثور على الواقع من خلال هذه الشخصية الاسطورية ، وان الذى يقوم بالتمثيل فى الحلقة، كما نرى هو الجمهور فالمتفرج يندمج فى دوره ويذهب به تيار اللعبة حتى ينسى وجوده الخاص وحتى يهرب من ارضية تاريخية راهنة ، مثل هذا الذوبان يحدث فى عروض التعزية ، وهى العروض المسرحية التى كانت تقام فى ايران بمناسبة ذكرى مقتل الحسين فى كربلاء ، فالمشخصون فى هذه (العروض) يذوبون فى ادوارهم ذوبانا مطلقا وينفعلون انفعالات حقيقية ، وتظهر الحلقة بهذا المفهوم الهروبى فى مسرحية (عنترة فى المرايا المكسرة) .

وهكذا نجد ان الشىء الذى يلون العقلية العربية هو فكرها الاسطورى الذى يقوم على انتظار التغيير من فوق ويطرق غيبية خرافية لا تقوم على ما يفرضه المنطق من علية وسببية وتواصل بين المقدمات والنتائج ، كما ان هذا الفكر يرى ان اساس الخلق هو الكلمة لا الفعل فاصل الوجود كلمة (لكن) واذا كان للكلمة (كن) هذه القوة فلماذا لا نقتصر على الدعاء وحده ؟ وبهذا يكتسب الدعاء نفس الثقل الذى تملكه كلمة (كن) كما ان الخرافات والاساطير تملك قوة هائلة تجعلها تحول الضعف قوة والفقر غنى وذلك بالاعتماد على سحر الكلمة .

فالحلقة اذا مادة خام غنية وذلك لانها تشكل منطلقا مهما لنقد الاوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التى افرزتها ، كما انها فى فنائها اللامعقول تشكل ادانة صريحة للفكر الاسطورى الذى تولدت عنه.

ـ الوجود فى الآخرين :

اما الفئة التى تريد ان تعيش الحاضر فانها بالضرورة تسقط فى التقليد ، تقليد من يملك الحاضر ومن صنع الحاضر ويتجلى هذا التقليد فى كل مظهر من مظاهر حياتنا اليومية كما يتجلى أيضا فى كل انتاجنا الفكرى والفنى ، واذا كان الوجود فى الماضى والمستقبل المبتور غيابا، فان التقليد بدوره غياب أيضا ، وذلك لان المقلد يفقد شخصيته المميزة ويتحول الى مجرد نسخة كربونية لاصول غربية واخرى محلية ، فالشىء الذى لا نصل اليه نكتفى بتقليده وتمثيله وان التقليد كما نعرف لا يرتبط بغير القشور اما الجوهر فهو ما لا يدركه التقليد .

ويتجلى تقليد الطبقة الفقيرة للطبقة الغنية من خلال (القراد) الذى يدرب قرده على تقليد نوم الباشا او جلسة القاضى او القائد ولقد كان

هذا التقليد ولا يزال يرضى الطبقتين على حد سواء لانه يسخر من الفقراء عند الاغنياء ومن الاغنياء عند الفقراء .

ـ واذا نحن رجعنا الى عروض (سلطان الطلبة) وجدنا ان الشعب يحقق « شعبية الحكم » من خلال هذه اللعبة كما انها تشكل عنده مناسبة لان يضحك على فقره من جهة وعلى لا معقولية ان يكون الانسان غنيا أو فقيرا خادما أو سيدا ، وان من أهم قواعد هذه اللعبة ان يعى المقلد انه يلعب فقط ولذلك يتخيم عليه الهروب عند نهايتها فالجاه حقيقيا والغنى ليس حقيقيا وكل مظاهر الابهة ان هى الا لعبة يحدها وقت معين ، فعزاء الفقير يكمن فى ايمانه واعتقاده بأن كل شىء الى زوال وان الموت هو المصير الحتمى لكل حى وان القدر لا بد سيجمعه جنبا الى جنب مع الاغنياء والعظماء ، فهو يوهم نفسه ان الغنى والجاه المنظمة مجرد لعبة وان قواعد اللعبة اقتضت ان يكون فقيراً وان يكون غيره غنيا ، كل شىء يجد له الفكر الاسطورى تبريرا خاصا حتى المال يتحول الى وسخ لا طائل وراءه .

ـ وان هذه اللعبة ايضا تشكل مادة خصبة يمكن ان تجدد دم المسرح المغربى اذا استغلت طرق من يصبها داخل اطار فكرى ينطلق من ارضية صلبة واضحة ، فهذه الفرجة تعتمد على التبرير ، كما ان خصوبة هذه الفرجة تظهر ايضا فى شكلها الفريد المعتمد على شبه ارتجال وفى التمثيل الذى تقوم به المدينة كلها لدرجة ان الخط الفاصل بين ما هو تمثيل وواقع ينمحى كليا ، وان ما يطبع الفكر الاسطورى هو اختلاط الحقيقة بالوهم والواقع بالخرافة كما تقوم هذه الفرجة على التقليد الذى حل محل التمثيل.

ـ الوجود خارج الابعاد :

اما الفئة الرابعة فهى لا تعيش فى بيئة مكانية معينة ، فهى تنسلخ عن الابعاد الثلاثة للزمن لتنغمس فى عالم روحانى محض لا علاقة له بالارض والساعة ، فهؤلاء يلبسون الصوف محاولين التحرر من الواقع المظلم والوصول الى عالم علوى يفيض (نورا) و (بهاء) واذا كان هروب الانسان العربى نحو الابعاد الثلاثة للزمن ناتجا عن انهزام فى حلبات المجتمع فان الامر كذلك بالنسبة للمتصوف ، فالفكر الاسطورى يعوض الفعل المحسوس الى رياضة روحية ، فالتصوف فى حقيقته رفض للواقع الوجودى ورفض ايضا للواقع التاريخى ، ولكن هذا الرفض لا يثمر غير تمرد ميتافيزيقى وان هذا الهروب التاريخى يعد غيابا مثله مثل مثل الانتظار والتقليد والوجود فى الماضى من خلال التشبث بالامجاد الغابرة وبالاساطير ، ولقد قامت مسرحيات عربية على التصوف فحالف بعضها التوفيق وكان مصير البعض الآخر الاخفاق وذلك لانها تعاملت مع التصوف كنماذج بشرية واغفلت الخلفية الفكرية للمتصوفين ، فأزمة البطل الصوفى نابعة من سوء اختياره،

فالهروب خطأ تراجيدى يؤدى حتما الى المأساة .

ـــ الاسطـــورة والفكـــر الاسطـــورى :

ومن خلال هذه الاطلالة على الفكر العربى نرى ان الغياب هو السمة البارزة فيه ، ولقد نشأ هذا الغياب نتيجة لشيوع فكر اسطورى يقوم على الهروب بدل المواجهة وعلى الكلمة عوض الفعل وعلى الغيب بدل الواقع والوهم والاحلام والانتظار بدل الحقيقة واليقظة والحضـــور المستمـــر ، ولنتوقف الآن قليلا ونتساءل عن الدور الذى يمكن لمسرحنا ان يلعبـــه فى ظروفنا الراهنة وذلك حتى يضمـــن لنفسه الاصالـــة والمعاصرة معا ، فالمسرح العربى بحكم الظرف التاريخى محكوم عليه بأن يكون ثوريا ولكن كيف يتأتى له ذلك مع وجود الفكر الاسطورى ، فالفكر الثورى يقوم على اسس علمية ميدانية مرتبطة بالارض وبالواقع اليومى اما الثانى فيرتكـــز على اسس خرافية غيبية مرتبطة بعوالم خارجية (الجن ـــ الملائكة ـــ الشياطين ـــ المكتوب ـــ الحظ ـــ القدر ـــ السعد ـــ الخ ..)

ان قيام فكر ثورى علمى لا يمكن أن يقوم الا على اساس انقـــاض الفكر الاسطورى وبهذا نجد ان المسرح العربى محكوم عليه ـــ وهو يبشر بفكر جديد ـــ ان يحرر العقلية العربية من فكرها الخرافى ، وهـــل يمكـــن نقد هذا الفكر الا من خلال الاسطورة التى انعكست عليها ظلال شتى من الواقع الاجتماعى والسياسى ؟ ان الاسطورة تكسب الواقع قداسة وذلك باعتبار أنه من صانع قوى قدسية ، فكل شىء مقدر ، وكل شـــىء وراءه حكمة خفية ، ولذلك فقداسة الواقع تكسبه مناعة ضد التغيير الثورى ، ثم ان التغيير نفسه فى الفكر الاسطورى لا يمكن ان يؤدى الا الى الاسوء وذلك باعتبار (انه ليس فى الامكان ابدع مما كان) .

فالشخصية العربية كما رأينا شخصية تعيش واقعا معقدا ، فهـــى تعيش فى الوقت الواحد فى اكثر من واقع واحد كما انها تعيش فى اكثر مـــن زمن واحد ، لهذا كان لا بد للمسرح العربى ان ينبذ الواقعية الفتوغرافيـــة ويولى وجهه صوب الاساطير والخرافات والتراث الشعبى وذلك بحثا عن الحرية فى التعبير ، فالتقيد بالواقعية الحرفية يحجب عنا مناطق شاسعة وغنية من واقعنا الحقيقى ، فنحن امة عجوز ترسبت فى لا شعورها الجمعى ملايين الترسبات والواقعية الحرفية لا تتعدى فى تصويرها القشور الى ما هـــو ابعـــد .

ـــ وهكذا تفرض الاسطورة نفسها على المسرح العربى لا عن اعتزاز قومى بالتراث او هروب الى واقع اسطـــورى ولكـــن لان ضرب الفكـــر الاسطوري لا يمكن ان يتم الا من خلال الاسطورة .

برشيد عبد الكريم ـــ الخميسات

ـ الهـوامـــش :

1 ـ (المسرح والتراث : برشيد عبد الكريم ـ و (نشرية المهرجان 6 لمسرح المغرب العربى ـ ع : 3 ـ ص : 8 '

2 ـ مجلة (مواقف) ـ السنة 1 ، ع 3 ـ ص 18

3 ـ (مسرح العجائبية والتصوف) ع ، شقرون ، مجلة الفكر ـ ع : 3 ـ ص : 50 نقلا عن د . حسن المنيعــى (العلم الاسبوعى ـ ع : 100 ـ السنة : 3 .

أعوام الجوع

عــز الــديــن التــازى :

والليل متقلب حزين ، فى منزل خرب ليس بالصيفى ولا بالشتوى ، تسكنه روحان وجثتان مفصولتان ، تلامسهما الظلمة واربعــة جــدران وسقف واطئ ، والتلامس دفء لا يحسه الجسدان ، الحس واحد والهروب واضح فى المجال الظلامى المحدود بالسقف والجدران . لا نثرثر ولا نعرف كيف نتحدث . لا نطلب . الوجود يتفسخ خارج الجسدين المقشرين النحيلين حتى الضوئ مسافة منعدمة بين أنا وهى ، وبين الفجــوة التى تعصرنـــا فى مجال ميت ساكن . لا احد يتعرف ، ورائحة الزمن ثقيلــة ، والايــدى تحاول سحب اكفان الجوع عن الجسدين ولا تستطيع . الذهول خامد فى الرأس ، والمــوت شــىء متــوقــع .

يدور المنزل القديم ويسقط فى مسافة من الغربة الصحراويــة لهـــا مذاق العطش ، فى هدب العين منفية الى خرائب الغبار والتعفن . المسافة كالطاحونة ، تدور على كتلة متلاصقة من العظــام اليــابســة المقشرة المصفوعة بشواظ الجحيم ، فى بيت تتلامس جدرانه ، والليل متقلب حزين.

كتلة متلاصقة اخرى تتحرك فى الدرب العتيق ، نعش واربعة اكتاف تتهرا تحت الثقل ، ودفقات من المطر المتتابع المسترسل . يقولون انــه مطر الرحمة . الجثة تهتز . الاكتاف تنآى بالثقل . لا احد يسير خلف النعش، المطر اخلى الطريق من العابرين ، ورياح الموت عاصفة ، يسير الموكب هادئا ، ولا صوت الا رياح الموت تثقب الفضاء ، وتخز الجلــد ، وتترك فى عيون حاملى النعش حزنا وذكرى ، وهل يتيه الانسان فى اكثــر مــن الريح الثاقبــة ، الفاصلــة بين القلب والقلب ؟

يومها كنا نعيش ، ونأكل من قلوبنا خبزا وزيتونا ، نمد على مائــدة الفقر فواكه من جسدينا ، ونشعل من عيوننا اضواء النجوم ، وآفاق من ذاتينا نحلق فيها ونغرق فى افيائها ، ولم نكن ندرى ان اليباب هو اشتعال الرأس شيبا وانه مدينة القبور . نأكل من قلوبنا خبزا وزيتونا ، نرى حقولا فسيحة من القمح والخضرة كانت لنا ملهى وهى مسروقة السنابل ، ننظر

الى عيون بعضنا ونقرر الصمت ، لان الظلام خلفنا والسجون الارضية التى بنيت جدرانها بعظام المصلوبين ، ولكننا نبصق الحقد وينطفىء ضوء النجم فى عيوننـــا .

وقفنا عند ابواب الريح ، يثقب الاسماع خرق الريح ، قالوا ريـــاح اخرى وليت الريح كانت تجرى بما تشتهى السفن . وقلنا هى الريح بين ايدينا خناجر مفلولة هل نترك أعناق الكلاب نافرة والعيون على تحديها ؟ وتبقى الريح مكسورة ، لا ترفع ولا تخفض ، تجول فى الساحة نكسر كل قلب مهزوم ، تزرع الاشواك فى الاجساد توقظ أحـــزانا طفوليـــة وتنكس الرؤوس . وشوارع المدينة دم . دماء الشوق والموت والاحداق دم . دم هو الانسان يموت صبرا ، دم الانسان شوق وحقد ، وجـــاء بالنبوءة ردف وما صدقت نبوءة واحد من ذوى السحنات الباردة القبرية ، وفى رتابة الزمن الماضى والاتى لا يصدق الفعل السريع ولا يكون الناس مـــن الناس ونبقى ضرسا مخلوعا وعيونا مسمولة واشلاء منشورة فى وجه الريح او نعشا يتحـــرك .

حفرة ساخنة منهوشة تنتظر ، والطريق اليها ازقة ميتة قديمة ، توارت عنها شمس النهار . الاكتاف الاربعة تميل ويهصرها الثقل . سكون ظلامى وتطلع ، وخطوات بطيئة تنسرب نحو المقبرة . لا ظـــل للنعش المتحرك بين المطر والغمام المغموس فى وجه السماء . المطر يتدفق فى عروق الارض ، يسمونه مطر الرحمة ، والمنعطفات تـــدور بالنعش ولا شك ستلقيه خارج اللعنة القائمة وخارج الريح والخناجر المثلومة .

وقالت يدى سكرية ، فكلها ولا تنتظر مائدة من السماء ولا أخرى من الارض ، فقلت وما تاكلين ؟ لاحت غيمة دافئة من العين وكان وراءها ذعر الجوع والطاعون . أفتش فى جيبى عن قطعة من النحـــاس او الـــزنك ، وكانت يسد السكر ممدودة ، فلم اجد نقودا او ثقوبا ، وجـــربت ان اصير طفلا فى الخامسة يغتذى حلوى السكر . أمتص وخوفى ولسانى جمرة نار، وطعم اليد الحلو شفاء وسقيا بالبرد والسكينة . وقالت أنا اطعمك مـــن جوع فقلت وما تطعمين ؟ ويد من حديد على خزائن القمح والزيتون واللحم المقدد والفواكه المجففة ، وصناديق التمر والزبيب وبراميل الخمور . قالت لماذا المجاعة قلت هم ايدى الحديد سارقوا الحقول والضيعات من عبيد الارض ذوو الوجوه المسكونة بالحقد المنفوخة بفيض الخير والامان على اعوام من النهب . وتضاربت لمع البروق فى عينيها وكانت سكرا فى دمى وحرارة تذوب مع المص الملهوف ولا يبقى سوى عظم نحيل يشد الاطراف بالاطراف . مصى شديد وانتهت حلوى السكر بالنخاع القصبى وما شبعت. قالت تأكل التفاح والرمان ؟ قلت هى النهاية ، جوعى أن آكلك وجوعك موت فما تأكلين ؟ اتسعت عيونها وغاض الدمع فى الاحـــداق ، وانفتحت

سراديب الدهشة فى عينى ، على الخرائب المتهاوية والذعر المـــلاك فى الاقباء الرطبة التى لا يسمع فيها سوى صـــدى صـــوت السلاســـل ، ورائحتها الموت والجيفة ، وعلى الحيطان عظـــام مدقوقـــة تتوغـــل فى الشروخ كأنها سيوف أثرية ، والجماجم المسلوخة الجلد والشعر تلمـــع مع هبة الضوء ، وفى الاقباء الرطبة تنور يحمى من وقـــود اجساد هـــى التفاح والرمان والسكر . قالت : ما ترى ؟ قلت لا شىء . وعامت عينها بالدمع ولا ادرى ما كانت تراه .

متاهة الوصول تنتهى بمدينة القبور ، والمساء متعب يحنى راسه نحو الافق الغيوم . لا وصول الا بعد التيه فى ازقة ظلامية متسربدة يخشاها الاطفال ويضحك منها الشيوخ ويحاول الشبان قنص اللذة فيهـــا ، امـــا النعش والاكتاف الاربعة ـــ الكتلة المتلاحقة ، فمساؤها متعب وحمـــرة دموية تفصل بين التراب والارض والرائحة .

فى عينيها ضفاف اخرى بعيدة ، ونجوم تتقافز وتضىء كل الارض ، وبحر من الملح لا يعطى سوى الاحلام والغربة . وكانت الضفاف الاخرى فى منفى الجزر الوحشية ، لا احد يأكل فيها من اعوام النهب ، وسيقان نباتية تعطى ثمارها الا أحد . الانسان غائب . ها نحن . والشبع له مـــذاق خاص ، هو النبات الاخضر الطازج . تضاحك فى عينيها فرح الحياة وهـــى تجرى نحو النبع . قالت وهل هذا طعام الادميين ؟ وكنت اسمع ريحا فى دواخلى ما تزال تقصف ، واشتم رائحة السجون فى جلدى ، وكانت تبكى الغربة فى العين وفى الراس ، كنا نسبح فى فضاء سديمـــى ، والريـــاح تظللنا ، نتنفس هواءها الثقيل الدافىء البارد الحار العليل القائظ ، ونحن لا ندرى هل كانت هاته الضفاف كشفا ام خطيئة ، حلالا ام حراما .

عند ما بدات ابحث عن ثورة ، لم اجد حولى فى هاته الضفاف انسانا يتزاحم ويتكاثف ، تطلعت الى الافق البعيد ابحث عن وجوه كالحة وايد تهوى بالفاس ، وعيون تغرق فى الدم لا ترى الحقول المسروقة المسقية بالدم المراق . قلت فى خاطرى : لا ثورة الا مع الانسان .

كانت تهيم فى خضرة الحشائش وهى تدعونى :

ـــ تعـــال .

ـــ هـــل انت حـــواء ؟

ـــ تعال . نحن نسكن الارض لاول مرة .

ـــ وهل اختـــار ذلك ؟

الصمت مسافة من الغربة تقطعنا . رعشات مـــن الداخـــل تعصر القلب . قالت :

ـــ اقتـــرب .

وكانت ثورتى أن ارفض اللعبة ، لكى لا يكون الانسان الجائـــع ،

ولكي لا يقتتل قابيل وهابيل على كسرة خبز ، ولكي لا يصبح احد متى استعبدتم الناس ، ولكي لا يكون باب المحروق من ابواب فاس ، والمحروق انسان ، ولكي لا يكون الانسان ثمارا ناضجة يهواها السيف ، ولكي لا تكون وجوه من البشر وفيض الامان في اعوام النهب . لن اقترب ، لكي لا تكون الدوامة التي تتمخض عن الجوع في البطن . والسيف على الرقبة .

اتصل الجلد بالجلد ، ميتا متهرئا رقيقا ، وتحللت العروق المنتفخة بالدم الجامد ، الى صفرة سائلة متلزجة ، وهكذا فبالدم كنا ، ينتصب عروقا نابضة فاعلة ، حتى في عروق العين التي تلون الحقول المسروقة باللون الاحمر . وكيف ؟ لا نعلم . ومتى ؟ في التاريخ المتوالد من نفسه ، وفي الوجود الضيق الذي يسكن في جوف خرافة تتناسل من ذاتها ولا يبقى فيها من الحقيقة الا لون الحقول التي يمتطيها الدم الاحمر خارجا من عيون عبيد الارض . وكنا نرفض ان نأكل من لحم الانسان حتى تكون لنا الحياة القصيرة . وكان النعش يمشي في زقاق عفن قديم ملتو تغسله دفقات المطر ، وعلى جانبيه غابات وحشية وشطآن يعتصرها الموج ، وكان اثنان في النعش الاول آكل والثاني مأكول وكلاهما ميت .

محمد عز الدين التازي

لاشيء

جلـول عــزونــة .

الى صاحب : « صحن كفتاجي بالعظمة »

« واذن فى الناس أن الرحيل قريب اذا ما بدأ الهمس قبيل طلــوع الشمس » .

« حديث نبوى شريف ما رواه الصحيحان ، لا البخارى ولا مسلم ولا غيرهما ، وهو اذن الى الانتحال أقرب » .

كأنى وأنت فى عهد ألف ليلة وليلة .. كل شىء مغلــف بشىء مـــن السحر والخرافات والابهام والاسرار والبساطة بل واقول السذاجة . وراء كل ذلك او امام كل ذلك وحول ذلك اطار من الجنس لطيف ، رقيق محبب الى النفس . ولكن ما ابعدنى وابعدك عن هذا الطيف .. فأمامـــى رجـــل قد عشى بصره ، لا يرى أبعد من موطىء قدميه لا يكاد يشعر بوجـــود الناس من حوله لولا صياحهم وهتافاتهم وبصاقهم .

« ففصلى هذا من فصول العنف فى الف ليلة وليلة » :

فهذا الرجل يعيش تماما كما تراءى فى حلم مواطن من مواطنينـــا ، مناضل من مناضلينا ... قد عرف السياسة بمعانيها القريبـــة للاذهـــان والبعيدة عنها ، قد عرف السجن وفعل العنف « وفعلوا له العنف » .

فهذا الرجل اذن قد كشف رأسه ، فتهدل شعره متلبدا ، وبدون انتظام ، وسال عرقه ، ودمعت عيناه ... لا يكاد يرى شيئا الا ذلك الذباب المتزاحم على عمش عينيه وذلك الذيل المتراقص تحت أشعة الشمس ، يضرب به الذباب وكأنه يدفع به دفعا نحو وجه الرجل ، فلا الذباب يولى ولا الذيل ينقطع عن الحركة ولا حرقة الشمس تلطف من حدتها ولا الصياح يهتف ولا سيل البصاق يتوقف .

ينهض مواطننا اليوم وفى عينيه خيالات حلمه ، وينام من الغد وكل امانيه ان يعيش من جديد هذا المنظر التهريجى الممتاز .

فهذا الرجل اذن لعبة الصغار .. ولعبة الكبار .. قد صفقوا له بالامس حتى عييت أكفهم جميعا ... ويرجموه الآن فلا تعيى ايديهم ولا يكف سيل

بصاقهم ولا تعيى حناجرهم ولا ينتهى اصطفافهم ولا يتعب خيال مواطننا الممتاز من نفس الحلم ..

وتردده عليه بالحاح يخفف عليه وطأة الليل وطوله .. لقد كان منظر الف ليلة وليلة كاملا غير منقوص ، فها انا وانت فى مهرجان قد حضره الوف البشر ، وقد اصطف هؤلاء جميعا على جوانب كل الطرقات وكل الساحات وحتى فى الازقة وحتى فى خفايا رأس مواطننا الممتاز ... كل هذه الالوف قد اظهرت وحدة فى الرأى ووحدة فى الصف ووحدة فى الحركة وانسجاما « هارومنيا » فى هذه السنفونية الرائعة ...

وحتى ذيل الحمار قد نشط فى دفع الذباب الى وجه هذا الرجل المطاف به ، الحاسر الراس ، الاعشى النظر ،يلتهم عمشتى عينيه ، وينعم بطعم البصاق المنوع اللذيذ المتهاطل من هذه الافواه الصارخة ، المكشرة ، المتسخة ، المتهدمة الاسنان ... من فتحات مشوهة مرعبة ، مشنجة ، متطاولة ... ويسأل الطفل اباه :

— ماذا فعل هذا المسكين ؟ حتى يفعل ما يفعل به ؟

ويجيب الاب آليا وهو يبصق مع الناس :

— هذا كلب حلوف ، اراد ان يكون الكل فقراء .

ويضيف الابن :

— وهل يفقر الفقراء وهم لا يكتنبون شيئا ؟

— اسكت — فهذا ليس من شأنك — هذا لعب الكبار .

ويصمت الطفل وفى عينيه احلام من احلام الف ليلة وليلة غير تلك الاحلام لانه يحمل قلبا ناصع البياض ، لا يعرف اللف والدوران ، ولا النفاق ...

((اللعبة لعبة : ولكن اهى لعبة الصغار ام الكبار)) :

— مات الباى !

— يحيا الباى

— عجبا أبتاه .. حدثنى عن العائلة الحسينية اذن ؟

— وما الحسين بن على وما على بن ابى طالب ؟

— ومنا النبى ؟ ! لا شىء !

— اهذا كفر !

— نعم كل هؤلاء لا شىء ... بشر قد ظلموا او ظلموا .. ثم ولوا ، هكذا الدنيا .. لا أمان معها .. تصهرنا .،، وتذيبنا ،،،

ولكننا مع ذلك نتعنت ...

— واحمد باى ؟ أهو باى عظيم ؟ ؟

— نعم ، كان قصير القامة ولكنه قوى العينين ، اخضرهما — ثاقب النظر ... ان نظر الى شخص .. يبوله ، ويدهش الابن الكبير والابن

الصغير ... ولا يريد أحد منهما ان يرجع الى عهد الصبى وعهد البول .
ـــ والمنصف بـــاى ! ؟
ـــ كان وطنيا ولكنه لم يكن راشدا بأتم معنى الكلمة ...
ـــ والاستقـــلال ؟
ـــ اسكت ، فهذا ليس من شأنك ـــ هذه لعبة الكبار ...
« يا وجه الخبزة يا شفاه المشمش ، يا حياتى ... »
ـــ مـــاذا تحبين ؟ !
ـــ احـــب التيـــن ، زمـــن التـين
ـــ ومـــاذا ايضا ؟ ؟
ـــ واحب التين فى غير زمن التين ...
ـــ ثـــم مـــاذا ؟
ـــ احب الفل والياسمين والرجل الرصين ...
ـــ وتكرهين مـــاذا ؟
ـــ واكره الرجل المتحجر القلب .. والرجل الانانى - المغرور ...
ـــ ثـــم ؟
ـــ واحب ابى ... شابا وكهلا وشيخا وحيا وميتا .
ـــ عجيب ! !
ـــ واى عجب ان تحب فتاة اباها ؟
ـــ لا شىء ...
ـــ ابى يبادلنى الحب ، احبه خصوصا وقد أظهر انه احسن تربيتى عند ما كان حيا ـــ ويحسن الآن تحمل مسؤوليتى بعد ان مات !
ـــ عجيب !
ـــ نعم .. نعم .. فكل اطفالى نسبتهم اليه ... وقد عز الاباء فى هـــذا العصـــر ! !
ـــ او يجدر بفتاة ان تكون اما بدون رجل ..
ـــ هذه لعبـــة الكبـــار .. اسكت ...
« وسكت طويلا .. ولكنى كبرت .. ولم العب ... مع الكبار ... »
الرجل اعمش ، ومسكين .. اكل الذباب من عينيه ، فلم يعد يرى .. والناس ترجمه .. وما زنى .. وما سرق ... وما درى ...
والسائل ، الطفل يمد يديه ...
ـــ اعطنى ثمن ربع خبزة ! ! اعطنى ثمن ربع خبزة ...
ـــ اهذا زمن السؤال ... ! ابصق مع الباصقين ..
ـــ الا تشعر بمثل ما يشعر به اهل البلد ... ؟
ـــ تنح من امامى .. ما اثقلك ؟ اليس لك بصاق على هذا المذنب ...
ـــ البصاق .. لى بصاق .. لى كثير من البصاق .

ـ اذن هيـا ابصق معنـا ..

ـ بشرط ان تعطنى ثمن ربع خبزة ...

« والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلـد الاميـن »

قرآن كريم

نحـــن نعيــش :

انـا

وانــت

وهــو

وطلب الخبز الصغير

فى بلــد امين

الرجل الاول : انا ادخن السجائر الموردة واشرب الكحول الغاليــة وانكح الاناث الاجنبية .. لذلك احب السياحة !! والحمد لله

الرجل الثانى : انا ابن فلان .. اركب الخيول الانكليزية ، والسيارات الامريكية واسكن القصور المرمرية ، لذلك انا اكره الاشتراكية والحمد لله

الرجل الثالث : انا احب الاوز والتفاح ، التين والزيتــون واللحـم والاسماك والسكنى بالمدينة .. لكن دخلى متواضع وجيبى دائما فارغ .. ولكنى احمد الله ..

الرجل الرابع : انا ومثلى لا زلنا نسكن الاكواخ ، وعلى كل فالحمد لله

الرجل الخامس : انا السائل ... اشترى الخبز بالبصاق .. ابيع ريقى وابصق معهم ولا ادرى لماذا ... ولكنى جائع دائما فلا بد من ارضاء اسيادى والحمــد للــه ..

الجميــع : ونحن نلتقى جميعا فى بلد واحد ونلتقى فى حمد الله ، والحمد لله على كل حال !!

« ففصلى هذا من فصول العنف فى الف ليلة وليلة »

الف ليلة وليلة فى راسى وراسك ورؤوس مواطنينا جميعا ...

ومــاذا نفعـل ...

ـ انـا احلـم

ـ وانـت ؟

ـ انـا احلم ايضا !

ـ وماذا ترى فى الاحلام ؟

ـ أرى انى لم اعد ابصق ولم اعد أصفق

ـ وانـت ؟

ـ أرى ان فارا كبيرا ... من انواع الجرذان الكبيرة جدا .. قد دخل بعض الدهاليز الباطنية لبناية افريقيا ، فما احتواه الدهليـز ، واراد التخلص ، فضاقت به الجدران ، فاقتاد البناية كلها على ظهـره

على طول شارع بورقيبة ، الى البحيرة ... ثم سبح بها الى حلق الوادى .. فالى قرطاج .. فالى سيدى ابى سعيد ؟؟؟ وغرق معها فى اعماق البحر ... فتضيع البناية العظيمة ويضيع معها الضياع والسكر وتمضية الوقت الفارغ الى الابد ..

ــ انت تحلم دائما بالجرذان ؟!

ــ وهل اجمل من حلم ترى فيه الجرذان وهى تقضم وتتلوى وتتصايح وتتصـــارع ...

ــ وهل تتكلم الجرذان فى احلامك ؟

ــ كلا ولكنها فى ما عدا ذلك فهى تماما كالبشر ، فى القظم والتلــوى والصياح والتسابق والوسخ .. وسوء الطوية ..

ــ ولكن « الف ليلة وليلة » لا تكون كذلك الا اذا كان هناك شهريار وشهـــرزاد .

ــ وهل يمكنك ان تصفهما !

ــ كلا ويا للاسف ، فان الاحلام يجب ان لا تصبح « لعبة الكبار »

« وهل يفقر الفقراء وهم لا يكسبون شيئا »

انا طفل فى التاسعة من عمرى .. اتعب فى جمع ربع خبزة ، ولـــو كنت فتاة ! ؟ . لاعجب بعض كبراء القوم بى ، ولما تعبت .. ابصق كل يوم فى وجه المطاف به .. وجف البصاق فى فمى .. ولا ادرى لماذا لا اريد ان ابصق ولا ادرى لماذا اشعر بالاشفاق عليه .. ولكنه الرغيف ..

ولعلنى لن ابصق بعد اليوم .. بصاقا ولكن ماء .. اغسل به وجـــه المطاف به المسكين .. فأريح بعض عذابه .. واطفىء ضمئى و .

لقد صرت افهم الكثير .. ولكن لعب الكبار .. لا يزال يتعبـدى رأسى الصغير ، اللهم الا اذا كان كله تمثيلا وكذبا وبهتانا وغرورا وانانية .. وظلما وصلفـــا ..

الارض تدور مع العوالم فى صمت وهدوء ، وانسجام ولكـــن رأسى يطن ، يتفجر من وقع البصاق على الارض ..

« ولعلنـــى لـــن ابصق بعد اليـــوم ... »

« المناج » يدور .. يدور المناج ورأسى يدور .. وانا كالطفل العب وادور ... واصيح

اركب الحصان الخشبى ، واخاله المطهم العربى .

وتركب السيارة الخشبية الصغيرة والصاروخ والطائرة ويدور المناج بك ايضا .. ونصفق ونبتسم .. ويضحك لنا الناس ويقهقهون ؟؟؟ رجـــل وامرأة يركبان « المناج » .. وينزل الاطفال ويصفقون ! لنـــا شعبيـــة ! ويتابعهم الكبار .. يصفقون علىّ وعليك .. أهى السخرية ، اهى البراءة .

يداعبنا الناس .. اتراهم يشجعوننا .. ام ؟ ! . ويكثر الزحام من حولنا

.. منهم مؤيد ومنهم محتج ومنهم الساخط الناكر ،، ولم ننزل ، لا نزال نتابع الـــدوران ..

ويغضب صاحب اللعبة ويصرخ بنا ..

هذا جنون .. وطيش وبلاهة .. « المناج » للاطفال لا للكبار ، هــذه لعبة اطفال .. ويوقف الدوران ولا ننزل . ويعلونا الصراخ ويمس وجهينــا رذاذ البصـــاق ...

« لا شيء .. لا شيء ،، لا شيء . !! »

حبيبتي الاولى احببتها منذ الصغر .. قبلتها ، ضممتهــا . استلقيت معها على الحشائش وعلى الامواج .. فنهرني ابوها ونهرهـــا ابـــي . تلك « لعبـــة الكبـــار » .

وافتـــرقنـــا ...

حبيبتي الثانية تزوجتها .. تمنيت ان احيى معها ،، ما لم استطعته مع الاولى ،، فغضبت علي ،، رصاحت « انا اريد منك ابناء كثيرة .. لا القبل ،، تلك مـــن العـــاب الصغـــار ..

وشاب راسك ! وعلت راسي بعض الشعيرات البيضاء ...

ــ دعنا من الشيب والاحلام ولنتحدث في الواقع !

ــ الواقع وما هو .. ؟ قد نقضي الليل والنهار نعرف الواقع ولا نعرفه ... الاحسن أن نترك المواضيع الميتافيزيقية مثل تعريف الواقع وتحليــل مركبات البصاق والعدوى التي تتسرب بواسطته ،، ونتـــرك المواضيــع النفسية ، مثل غرق بناية افريقيا في اتجاه سيدي ابي سعيد ، واثر بصاق البشر اذا ما سال على وجوه بشر مثلهم .

ــ وماذا ترانا نعالج من مشاكلنـــا اذن ؟

ــ مشاكلنا في كثرة الكرم والغوص في الماورائيات ونحن لا نستطيع بعد مد البطون بما يلزم اجهزتها للدوران ..

ــ وهذا اليس هـــو الواقـــع عينـــه !

ــ كأني بك غبي .. وأين الواقع في هذا ومن هـــذا ؟ ،، الواقع أن يشرب شهريار الكثير من الجعة كل مساء ويتغازل مـــع جاريـــة جارتـــه شهرزاد .. ويخون طباخته الماهرة فلا يأكل صحونها ، وان يغتسل باللبن الناصع البياض والطيب الرفيع ويستمع لوصلات من « المـــالوف » وان يسب ماسحي الاحذية ويضرب رؤوس عشرات منهم يوميا ويملأ السجون من الذين لا يجدون ما يلبسون من اللباس المحترم فيجـــرحـــون الاذواق والعيـــون ،، وان ..

ــ كأنك تهذي ،، انما اردت ان اقول أن الجرذان ..

ــ ولا جرذان في الواقع .. **انما تلك احلام رجل آثر ان لا يصمت زمن الصمـــت .**

ـ الواقع ان الجرذان والواقع شيء واحـــد . اذن ..
ـ والله لم تفهمنى .. انما أنا سكران ، من طبقة من يأكل فيشـــم فيهذى ، سامحنى واهل طبقتى والله هو خير الغافرين ..
((انما تلك احلام رجل آثر ان لا يصمت زمـــن الصمت))
ويتثاءب صاحب الحمار ، وصاحب الجرذان ، ويغمض عينيه برهـــة فيستريح المطاف به برهة ، بل لحظة من عذاب البصاق ومـــن صـــراخ الجيـــــاع ...

تونس جلول عزونـــه

الجلوس قرب حافة الإنتظار .

صديــق مصطفــى .

يمشى على الطوار ، ينظر فى الواجهات الزجاجية ، لا يرى ما بداخلهـا.
كان وجهه كنصف رمانة عفن . صاخب فى داخله ، هـادىء وهـو
(ايها الشىء الذى فى صدرى ، تنجر ، انفذ الى العالم . أمامك المرايا فى كل ركن ، اخرج لترى نفسك) .

العمل مقرف . وكل شىء حتى الحب ، جريمة .

افاقت الذكريات بالامس عند الشاطىء القريب الفارغ ، فقط عند ما تذكر رحلة القطار الطويلة ، واشياء اخرى ، و ،،، وهـى . كـان فى انتظارها شاب طويل تبلها من الخدين ، تابطت ذراعه وغـابـا وسط الاجســاد .

عدة اعوام فى السجن شىء غريب وجديد فى الحياة . رغم وجـود انفصال حى عن العالم الخارجى ، فهناك شىء مهم يبقى دائما فى الذاكرة حيا ، هو الآخر . نعم حيا : علاقات السجن . وبعد الخروج بدا كل شىء مقرفا الا منظرهما وهما يغيبان وسط الاجساد البشرية .

الليل تهاوى على الشارع ، فى دقائق فرغ . هناك ايضا برد قارس. بقى يتسكع مر وقت طويل . وفى طريق العودةرأى فى ماخور مظلم سعيدا، رفيق الزنزانة . كان متهما بافتضاض فتاة اسمها فاطمة . عند ما دخـل وجد اخاه كتب اسطرا فى قصة قصيرة ، أهتم بالامر وقـرأ : « افتضت فاطمة عند العصر . عند ما كان الطريق فارغا وجدت فى جانب الطريق ، ملقاة بجوار حقل الذرة . تنزف دما ، دما ثانيا ، وفى حالة خطيرة ، من نعل ؟ ! الذى يسمع الحكاية لاول مرة لا يسعه الا ان يتاسف اما نحـن فبقينا صامتين ، نقبنا فى كتب العرافات . حتى رجال البوليس الانكيـاء لم يستطيعوا ، رغم دهائهم الذى يستعملونه ضد مهربى المخدرات ، لم يستطيعوا ان يصلوا الى المجرم . شىء وحيد نعرفه عن الحادث ، عند ما سألنا فاطمة قالت : خرج لها رجل ملثم من حقل الـذرة ، هاجمهـا كمارد تماما ، وكان ما كان » .

تساءل هل تكلم عن سعيد امام اخيه . لم يدر ، نام دون عشاء .

ـ اوف انت لا يهمك الا التساؤل اصبح حرفتك المفضلة .

ـ لكنك ، يا ولدى متألم ؟

ـ ذلك لا يهـــم .

ـ لكنك جـــريـــح ؟

ـ يوجد جرحى كثيرون غيرى ، يريدون أن يسألهم احد عن سبب جرحهم ، روحى لهم اسأليهم عن سبب جرحهم . اما انا فدعينى ارتاح .

ـ لكنك ابنى وانت أقرب الناس الى ؟

ـ عرفت هذا منذ استأنست بوجهك فى الصغر .

ـ والان ؟

ـ اراك كـــل يـــوم .

صمتا . وبعد برهة قالت :

ـ هـــل تأكـــل شيئا ؟

ـ سأفكـــر فى الامـــر .

تذكر السجن . قال له الخبير النفسانى يوما : زرت كل سجـــون العالم . ابحث . وجدت كل الاشياء أمامى معقولة ، والسجناء مظلومون، يتـــامـــى !

ايضا تذكر الشعر الذى نقشه على الحائط الكالح الذى لـــم يـــر الشمس يـــوما « رغم الحاجـــز اراك يا حبيبتـــى ، اراك كالشـــمـــس » وعنـــد مـــا سألـــه الـــذى يشاركه الغرفة ـــ وكـــان شاعـــرا ـــ ان يقرا له القصيدة ، اعجب بها وكتبها فى مفكرته . نصحه بأن ينشرها عند ما يخرج من السجن . تساءل فى هذا الصباح هل يفعل ؟ لم يستطع ان يجيـــب .

عاد الى الشاطىء . كان يفكر فى كلمات امه الاخيرة وقارنها بشعر اخيه . فتذكر (البحر الصامت) وقال فى نفسه . كذلك هـــذا البحـــر : (بحرنا صامت ليس كمثله بحر . بحرنا لم يعد صامتا ، هاج . أطفـــأ نارنا واستمدت منه برودة لعينة . ابعدتنا عنه . ابعدته عنا . لم نعد نستطيع ان نمارس الحب فوق رماله) .

تساءل هل من المعقول ان ينشر مثل هذا الكلام . فكر طويلا . اخيرا ضحك فى سره على نصيحة صديقه الشاعر .

هذا الشاطىء اصبح حافة خطيرة ، تسقط عبرها الاشياء فى هوة سحيقة . الامواج لا تزال هادئة . سيخرج منها شىء ، من هذه الزرقة ، فلانتظر . التمثال المنصوب عند سور الشاطىء ـــ كان يؤمه العشاق عبر كل الفصول ـــ تحول حنانه الى عطلة ، واصبحت عيناه ـــ عيناه الحالمتان، فوهتين تقدحان شررا ، وتنتظران .

(هنا تموت الذكريات وتحيا) . حتى الحب اصبح جريمة ، والمحبون مجرمون . فى رحلة القطار الطويلة فكر فى ان يكلمها ، كانت وحيدة ، امامه . وكان وحيدا . كان يعيش فى تلك اللحظات كجزء من العالم . ملابسه وخدها هى التى كانت تنتمى الى عالم قديم . هكذا احس، نزلت من القطار ، تبعها . سارت على الرصيف طويلا ، ظل يقبعها و ، و وقبلها الشاب من خديها وأخذها بهدوء . فعل ذلك كأنما تسلم بضاعة رائجة . فى تلك اللحظات بالضبط عرف انه كملابسه ، ينتمى الى عالم قديم . وتحققت الفكرة عند ما راى نفسه فى المرآة :

سمع صراخا حادا ، فتاة تصرخ . كان الفصل خريفا والشمس هزيلة . هناك هناك بعض العجزة ينتفون اعشاب البحر . سربلتهم الايام بجلد منكمش وثياب يسخر منها الهواء . بعض الشيوخ كانوا جالسين فقط ، الوقت كان عصرا ، لم يكن حقل ذرة هناك ، بل رمل وشاطىء يحتضر وأمواج سيخرج منها شىء ! . اشتد انقباض نفسه تحركت اقدامه جرى . كانوا اربعة أشخاص ، وصراع مروع . ارتطم راسه بالجدار رغم ذلك قاوم ، قاوم بعنف . العجزة لا زالوا جالسين . صراخ الفتاة لا يزال ايضا يقبع فوق صمت الشاطىء كثقل هائل : تذكر عنوان قصيدته الاخيرة : « عند ما يفكر العجزة بتلك الطريقة العتيقة يتحفر وجه السماء يا حبيبتى » .

الاشخاص الاربعة ، لا زالوا هناك ، يؤكدون حضورهم الدائم . الصراخ لا يزال ايضا والمقاومة . والراس يرتطم بالجدار : (لو وجدوك هكذا لعدت حالا الى الزنزانة 777) لكن ! سيظهر شىء . وعند ما سقط أرضا كان الاربعة قد فروا . بقيت فقط تلك الفتاة . والعجزة يتهامسون . ولم يظهر شىء من البحر .

ظل وجهه وراسه يفور بالدم . نفسه متقززة كانت . قلب عدة صفحات من حياته . فارغة بيضاء . فى تلك الدقائق بدت حتى علاقات السجن شيئا سخيفا قابلا للنسيان . الا الشاطىء ففيه دائما يطفأ اللهب الظامىء . فلأنتظر .

قصيدته الاخيرة احتار فى نهايتها . كان يتكلم فيها عن اربعة اشخاص وفى الشاطىء ها هو يلتقى بهم . كان يحاول احترامهم بكل ما اوتى من قوة . والعجزة لم يكونوا هناك على الورق . الاربعة حاولوا هزمه قبل دقائق . كان ينتظر ظهور شىء من البحر ! لكن الشاطىء فرغ حتى من العجزة . حدث ذلك ، عند ما تهاوى الليل . الجرح يفور اكثر ، كان شرسا كنمر هندى رغم ارتطام رأسه بالجدار .

وفى الشارع ظل يتسكع ، بينما نظرات الشرطى تقتحمه . وفى الماخور راى سعيدا يدلك فى عصبية عدوانية نهدى قحبنة لا وجه لها . (هذه المرة يمارس الحب فى مكانه . ولا يخرج من حقول الذرة فى العصر)

ـ ايـن تسكـن ؟

لم ينتبه الى انها كانت تتبعه طوال الوقت الا عند ما سمعها تسأل! قبل ان يعود ، وعند ما شاهد رفيق الزنزانة يدلك تانيك النهدين فكـر فى أن العودة الى البيت شىء مقرف . لولا الظلام الذى انهمـر . وتلك البرودة التى تقلص عضلات الوجه ، ولولا ايضا تلك لنظرات .

(ماذا تعنى محاولات أخيه فى القصة القصيرة . انه كعقل اليكترونى يدون كل الاحداث ، وبعد ذلك يفشل فى النهايات . رغم ذلك يستطيـع ان يفهم أن المأساة لكن تكرر . فهو لم يقابل شاعرا ولم ير ماردا يخرج مـن حقول الـذرة) .

سيحاول البقاء فى الشارع ، هكذا قرر ، لكن .. التفت الى جانبـه الايمن . كانت كهى ، كبضاعة رائجة . كرحالة قطار طويلـة ، الشعـر المنسدل على الكتفين أثار فى نفسه ذكريات هائلة وبعيدة . اما منظرها وهى تقبل ذلك الطويل فقد طحن فيه غالة الرجولة . حزن . استمر واقفا ، لـولا ان عـاد السؤال .

ـ أيـن تسكـن ؟

أين سأذهب يا عقلى ، يا خائن ! ارجوك الا تفكر بتلك الطريقـة العتيقة . لا اريد ان يتحفر وجه السماء . ودون ان يشعر سألها (كأنما واتته رغبة فى تقديم نفسه) :

ـ هل تعلمين من انا ؟

ـ ....

ـ لماذا تتبعينى هكذا . هل انت بوليس ، الا تعلمين اننى مجرم خطيـر ؟

ـ تكـذب

ـ بل هى الحقيقة ، هذه أوراق السجن .

ـ لكننى لا أود أن افارقك بعد الذى حدث

ـ مـاذا حدث ؟

ـ اربعـة خنازيـر

ـ مـا لهـم ؟

ـ حاولـوا أن ، أن

ـ وبعـد ؟

ـ ظهـرت كمـلاك

ـ أنـا ؟

ـ نعم أنت

ـ لا شك أنك تهذين

ـ وجرحت . ارتطم راسك بالجدار ، انظر لا زالت الدماء تتفجـر

كنبع لمس مكان الجرح ، تألم . (هذه الحمقاء تعرف كل شيء)
ــ لكن ماذا كنت تعلمين هناك ؟ الا تعلمين ان المكان خطر . وملىء دائما بالخنـــازيـــر ؟
ــ لاول مرة يقع ذلك . وانت ماذا كنت تفعل هناك ؟
ــ (سؤال ذكى ، كأننى ــ فى نظرها الان ــ كنت ذاهبا للصيد ، لكننى بلا قصبة ، ستظن اننى كنت ذاهبا لاصطياد انسان ربما كان هى)
ظل صامتا والشارع فارغ .
ــ ايـ تكلم . ماذا كنت تفعل هناك ؟
ــ (سعيد لعله الان ما يزال يدلك تانيك النهدين . والشاعـــر آه الشاعر اين هو ؟ ماذا يفعل الان . لا ، لا أعلم عنه شيئا) كنت أنتظر .
ــ مـــاذا كنت تنتظـــر ؟
ــ انتظر شيئا مهما . سأذهب الان ، الى اللقاء .
تشبثت بذراعه ..
ــ مـــاذا كنت تنتظـــر ؟
ــ قلت لك لا يهمك ذلك
ــ لن افارقك حتى تقول ، والا بلغت البوليس أنك ..
ــ أحس انه انهزم . وقال فى ضيق
ــ خرافة قديمة تقول : ان البحر سينشق يوما . وتظهر فيه كنـــوز فرعون التى غرقت معه . ستظهر ايضا الطريق التى شقها موسى بالعصا. وتظهر لكل ذى حاجة حاجته ، لهذا انا انتظر كل يوم .
ــ ومـــا هـــى حاجتك ؟
ــ نهايات محترمة لعدد كبير من القصائد . وايضا نهايات لقصص اخى الذى .. قبل ان يتم قالت عدة أشياء ،، فعلت عدة أشياء ، لم يدر الا شيئا واحدا بعدها ، هو انه كان فى طريقه الى البحر وكانت بجانبه. وعند ما وصلا الى الشاطىء كان العجزة لا يزالون هناك وايضا كان الاربعة تساءل ما وجودهم هنا ؟ ابتسموا له عند ما رأوه . جلسا فوق الرمل بينما كانت الصور تمر امام عينيه واهنة كالعياء . وظلا يرقبان الافق البحـــرى الازرق فى انتظار ان يظهر شيء . يرقبان ايضا طيور البجع وهى تصيـــد السمـــك .

صديـــق مصطفى

مُذكّراتُ مَجنُونٍ .

الصغير ادريـــس

حين انحدر من الطرف العلوى للزقاق المحدودب ، اشعل سيجـــارة وقال فى نفسه بان الدنيا تافهة، تافهة ... هل تذكر موت أبيك جيدا ؟ سكنت انفاسه فى الهزيع الاخير من الليل . كان شجاعا . لم يوقظ احدا . جابسه وحده عزرائيل المخيف . وكنا نحن ننعم بأحلام الصباح المبكر الوردية ، وهذا الزقاق الضيق المحدودب . وهذه الجارة الخبيثة القبيحة التى تدعوك الى مضاجعتها بألف طريقة فترفض . وهذا البقال الذى ينتظر آخر الشهر.
— ياولدى أصبر . منذ اليوم انت الرجل . انت المسؤول . حامى الحمى، أنت . انت .

ووجوه الاصدقاء ؟ انتم ايها الاصدقاء المخلصون . لولاكم ما كان للحياة معنى ... والحب الاول ؟ اول رسالـــة حب ، اول بسمـــة ، أول موعد ، أول قبلة ... والكلاب ؟ كلاب الصيد ينتشرون فى كـــل مكـــان ، يستنطقون الجدران ويشتمون ... انوفهم طويلة ،،، عيونهم ،،، مؤخراتهم ،،، الزناة . بكيت . تخبطت برجليك ويديك . قالوا لا تنزع ، أبوك ذهب للسفر ثم يعود . كنت تعرف انه لن يعود ابدا . فما كان الاموات يعودون ، والطابور الطويل كل ثلاثة اشهر ؟ العدل والانصاف . عيـــون الحـــارس وعصاه . كل متأخر يقف فى ذيل الطابور . العدل والانصـــاف . الشمس والذباب . والرغبة الرعناء فى التحطيم . تحطيم اى شىء . كل شىء ،،، كل متأخر يقف فى ذيل الطابور ... كان الموظف يحضر متأخرا منتفخ العينين ينهض لتوه من النوم . كان قد سهر ليلة أمس فى احدى حانات المدينة ، نظر الى الطابور بازدراء . مشى متبخترا الى مكتبه . انزلقت امراة مـــن آخر الطابور وتشبثت بيده تقبلها . جذبها الحارس بعنف . غضب الموظف وقال لاصحاب الطابور (همج) . صفق باب مكتبه من ورائـــه . سرت همهمـــة بيـــن الـــواقفين .

— يا ولدى اصبر . ان الله لا ينسى عبده . ومن أبكى يتيما عاقبه الله . ونعيمة ؟ نعيمة يا اجمل فتاة فى الدنيا . يا ابهى واحلى ، يا حبيبتي.

هل نسكن عش عصفور ؟ ونطعم حبات فول ؟ هل ..؟ شقراء روحـــاء حبيبتـــى ...

فى قصره الانيق على شاطىء البحر كان السيد (الباترون) غاضبا يعزف عن تناول الطعام . وكانت السيدة (زوجة الباترون) تواسيه . كان يسرف فى التدخين على غير عادته ، لان التدخين ينفس عن المهموم وينقص العمر ثـــم قـــال :

ــ تصورى يا حبيبتى . يا أجمل فتاة فى الدنيا . يا ابهى واحلى ، انهم يريدون تحطيم حياتنا . هؤلاء (الهمج) يستمرون فى الاضراب . يريدون امتلاك معملى اذ . انا الذى انقذتهم من حياة الجوع والبطالة . يحطمون سعادتى يا شقراء روحاء حبيبتى .

قال الموظف لاصحاب الطابور بلهجة صارمة : عودوا غدا . غضب البقال وصاحب الكراء وصاح (مسيو البروفيسور) فى وجـــه التلميـــذ (همج) ، وهذا الزقاق الضيق المحدودب ، قال شيخ الحومـــة يغـــازل امراة من سكان الحى :

ــ متـــى نـــراك يا جميلـــة ؟

ضحكت المراة وحركت عجيزتها متى ابتعدت منه قليلا . تأوه برغبة وقال فى نفسه لن افلتهـــا .

عاد التلميذ الى المنزل باكيا . هو لا ينجح فى الشهادة . هم يطردونه. قالت امه لابيه بأن يصنع له صندوقا لمسح الاحذية . قلـــب الاب طبـــق الطعام فى وجه الام . هو كان يريد لابنه ان يصبح طبيبا .. يا نيرون احرق كل المدن . كل الازقة . احرق الاوصياء يا نيرون . الاوصيـــاء الزنـــاة ، المزيفين الزائفين .. كان شجاعا ، لم يوقظ احدا . جابه لوحده عزرائيل المخيف ،،، نيرون أحرق كل الخطباء .

ــ يا ولدى اصبر . انت الان رجل

بقامة مديدة وشارب ونظارتين طبيتين . رجل أنا . وهذه الكوابيس ؟ الدماء وجلود اكباش العيد . جلود اكباش العيد .. تسير فى الطريق المبللة بقطرات المطر . تحادث نفسك بصوت مرتفع . تتقلص عضلات وجهك ، تكز بأسنانك على عقب دخينتك . تكور يديك وتبسطهما . تقذف برجلك الاحجار وسدادات المشروبات . يفر الناس من امامك . يتحاشاك الاصدقاء وينظرون اليك فى حزن وتعاطف .

الصغير ادريس ــ البيضاء

التّاريخ في الذاكرة.

ابـــراهيـــم زيـــد .

بدايــــة البــــدايــــة :

بدون تخطيط سابق نبتت شبه مدينة ، ملعونة انت منذ زمن ، تنعق الغربان فى قلاعها لتشهد وشمة عار محفورة على جبهتى .. جبهتكم ،، جباهنا نحن الاحفاد ، (اجدير) تنهار ،، تستسلم ،، تحتضر ،، تباع فى المزاد دون اعلان ادارى ، اوراق منزوعة من كتب التاريخ تباع فيها بذور القرعة ،، الدلاح ،، نوارة الشمس ، نقضمها بقواطع منخورة ،، نرث عادة الاخرين ، تلك بقايا تركة اصحاب الوجوه المحتقنة ، يعتلى عبد الكريم مئذنة ، يختنق صوته ، تموت فى حلقه لفظة : الله اكبـــر ، تردد جنبات الغابة صدى مقطع من اغنية نشزة ، الستيريو فى كل مكان، العين اليقظة تحرس باب جنة حمراء ، حواء تجردت من ورقة التـــوت ومعها آدم ، المجد لك يا نادى البحر المتوسط ، المجد لك ..

بادس اتجـــاه محـــذور :

متراقصة هى السماء امام ناظرى خجولة مترددة : ــ بنى ورياغل ــ انوال ــ ، افرك عينى جيدا لتطالعنى اضواء متلألئة ، ــ النكور ــ ، يا مسمار جحا ، لكم اشتاق الى كتابة التاريخ من جديد ، أزرع فى كـــل مكان روح البطل الاسطورة لتكتمل الفرحة فرحتين .. العيد عيدين ، تنبت فى سفح ــ تدغين ــ قامات تكبر وتكبر لتتجاوز القمة ، حيث المد يقذف علب البلاستيك الفارغة ، هناك (بادس) . شبه جزيرة تمتد من ارض شاطئية ككتلة لحمية لاحدب عنيد ، الطريق الى بادس عسيـرة ،، شاقة ،، وعرة ، فجوات جرداء ، صخور مسننة ، وبينها نبتت أعشاب برية ، طفيلية ، حشرت نفسها لتؤكد ان العالم ليس كله بخير ، على مرمـــى البصر حاجز ، عمود مخطط بالاحمر والابيض ، اللوحة الجمجمية تحذرك فى اصرار ، وكلمة قف غنية عن كل تساؤل ، حيث ينبسط السفح تتراءى (طريس القلعة) جوفاء ميتة كبقايا قرية مصممة من قبل لحساب شركة (مترو) ، يمتد المتوسط صافيا كقاب طفل نبت فى سفح جبل ، البحر

يلفظ امتداد آثام قادمة من الجزيرة ، أمامنا البحر والعدو ، وخلفنا جبال الريف المثقلة ببقايا اخطاء الماضى ، ملعون ذلك الماضى المبتـــور . ملعون مـ ماتت البسمة على الشفتين . .

الاصــل والصـــورة :

فى الذاكرة تاريخ ، يكبر فى داخلى ذلك الطفل الذى قلبـــه صـــاف كالبحر ، طفل اشفق على أزهار فى السفح ، وتدلى ذات يوم من القمة ليخطط بعينيه الرماديتين مشروع حياة افضل لمن هم حولـــه ، الصورة عكس الاصل ، الرجلان مشدودتان الى اعلى كخروف لم يسلـــخ بعد ، خرقة سوداء عطنة لم تستطع حصر دموع عينين جاحظتين ، ايها الوافد من ذلك الجبل ، الداخل الخارج الى ومن التاريـــخ ، السابح فى حلـــم تعجته ،، وما تعجلت يوما ما ، شيئـــا مـــا ، كحملـــك هـــذا فـــى زمن كهذا ، يسرى شىء فى اوصالك ، تحس برعشة غير التى كنت تحسها وانت فى كامل وعيك تمارس وجودك ضمن علاقة مشروعة ، الضحكات المجلجلة لم تخرجك من صمتـــك ، فكثـــيرا مـــا كـــان الصمت أبلـــغ من الف حوار ، أسلاك تدغدغ جسدك الذى ماتت عنه حيويته . حساسيته مشلول الحركة أنت ،، مرمى فى المكان الذى لم تستطع تحديد أبعاده ، دون حراك تحلم بيوم مشرق ، وفى السفح أزهار تتحدى المشانق .

الحسيمة : ابراهيم زيد

اشـــارات :

اجدير : مقر عبد الكريم الخطابى سابقا ، وبها يوجد نادى البحـــر الابيض المتوسط .

بنى ورياغل : من قبائل الريف ، وقد لعبت دورا بارزا فى ثـــورة عبـــد الكـــريـــم .

انـــوال : المعـــركـــة المشهـــورة .

النكور : جزيرة مقابلة لمدينة الحسيمة ، تشاهد بالعين المجردة ، وهى محتلة من طرف الاسبان .

تدغين : أعلى قمم جبـــال الـــريف .

بادس : شبه جزيرة محتلة تبعد عن الحسيمة بحوالى : 56 كلم

طريس القلعة : قرية شاطئية . متصلة ببادس عن طريق ممرات جبليـــة .

مكناس في مهرجانها المسرحي .

د . حسـن المنيعـي .

تتوفر مدينة مكناس على مسرح كبير انتصب في الهواء الطلق وسط حديقة عمومية تعرف باسم « الحبول » ففي هذا المكان نظمت جمعية « البعث الثقافي » بمشاركة جمعية « العمل المسرحي » المهرجان الاول للفنون الدرامية وذلك فيما بين 4 و 8 يوليوز 1974 . وقد لقيت هـذه الظاهرة الفنية نجاحا منقطع النظير نتيجة مساهمة بعض الفرق الجـادة كفرقة الكوميديا المراكشية والنهضة المسرحيـة (الخميسـات) ومسرح الفصول (مكناس) .

وحيث ان المهرجان كان قد نظم تحت شعار « من اجل تصحيـح عطاء مسرحي مغربي اصيل » فان المجموعات المشاركة قد برهنت من خلال عروضها القيمة بأن السبيل الوحيد للحصول على مسرح فني اصيل يتحدى الاحتراف هو الانفلات من الوصاية ، اى من قبضة اشراف الدولـة التي توجه المهرجان الرسمي للهواة ، ثم الانسلاخ عن تقاليـده الباليـة قصد خلق حوار دائم مع الجماهير المريضة عن طريق لقـاءات اخـرى تتجلى في المبادرات التي تقوم بها بعض المنظمات الثقافية كالمهرجـان الاول لمسرح الحبول ، الذى اكد بكل وضـوح ان الهـواة في المغـرب يوجهون انظارهم واهتماماتهم الى قضية الانسان المغربي قبل كل شيء .

لذا فان النتاجات المعروضة كانت تلتحم بتقاليدنا ، كما كانت تطرح آراء الجماهير ، وتسعى الى تسليط الاضواء على مركباتنا الاجتماعيـة وقضايانا اليومية . ففي « موكب السعيان » يعرض علينا « تيمود » ـــ وبأسلوب فني موجز ـــ علاقة باعة الجرائد مع الصحف وقراء الصحف اليومية . ومع ان الموضوع كان ينضبط في هذا الجانب ، ويرصد نماذج هامشية من المجتمع ، فانه يقدم لنا تشريحات حياتية عديـدة تجعلنـا نقف على حقيقة الانسان المسحوق الذى يناضل من اجل البقاء لانه « مهما ماتت الافكار فانه تولد افكار اخرى » . ولبلورة هذه الفكرة فقد عمـد « تيمود » كمادته الى اسلوب الفرجة التي توحي بالفرجة ، فاعتمد على

الرقص ، والغناء ، والحوار الشعرى ، وتكرار الحركـة ، والمـواقف الصامتة مما جعله يتوغل فى عملية « المسرحة » الى درجـة نسيـان الجمهور . وبالتالى فقد عاب عليه بعض الحاضرين فى مناقشة العرض عدم تطابق ايديلوجية النص مع الشكل وسقوط الصراع الاساسى الذى اصبح وهميا خصوصا عند ما ندرك فى النهاية ان باعة الصحف كانوا قـد هدموا الفكر المشلول دون قاعدة فكرية ودون سابق اعلان .

اما فى مسرحية « سائف لونجة » التى الفها واخرجها عبد الكريـم برشيد ، فان الحدث يقوم على اسطورة امراة تبدو سجينة فى مقصورة . ومن خلال هذه الفكرة فقد اراد الكاتب ــ المخرج تحديد مصير الانسان بعد ان دفعه الى البحث عن هويته . لذلك نرى منذ البداية ان المؤلف فى المسرحية ــ الذى يرمز الى الخالق ــ كان قد افترض تقديم عمل لا يعتمد على الصراع . وكان قد ابتدع لتأدية الادوار اشخاصا يرفضون كل اشكال ابطولـه ، الا ان ايصال الفكرة الاساسية كان يسلك مسارب متعددة تستغل التاريخ كلوحة خلفية ، وتدعو المتفرجين الى تطبيـق مراحلـه واسقاطها على وجودهم الباطنى او الخارجى .

وقد كان يتبين لنا من خلال تتابع اللوحات ان كل واحدة منها كانت تبدو وكأنها تردم الحدود الاستتيكية بتقدم عناصر انسانية جديدة انطلاقا من خطيئة آدم الى محاولة تمركزه فى حيز الوجود المتناقض الذى يدفعه الى ان يعيش الموت ليحيا الحياة من جديد سواء عن طريق الرفض او الفعل الثورى (الحسين ــ سندباد ــ الحلاج ــ على بن محمد قائد ثورة الزنج) . وباختصار فان مسرحية « لونجة » رغم ما يتملكها من تكرار فى بعض المواقف ، تعد عملا فنيا رائعا يصف الانسان فى شموليته عن طريق تفتيت عناصر التاريخ وتسخيرها لبناء واقع معاش .

وفيما يتعلق بمسرحية « الرهوط » التى توجت اعمال المهرجان، فان هذا العمل قد فرض نفسه كتجربة جديدة تضاف الى التجـارب الاخـرى التى ابدعها « شهرمان » لفرقة كوميديا المراكشية . اما تدخل المخرج عبد العزيز الزيادى فقد كان يتجاوز لمساته الفنية السابقة وان كان قـد استعمل نفس الاسلوب المدهش الذى لمسناه فى « نكسة ارقـام » و « الضفادع السوداء » . فالتشخيص كان يصاحبه الغناء الجماعى الـذى يعمق الايقاع الدرامى ومع ان الحدث كان يتناول قضية فلسطين ، فان المؤلف قد جعل منه مطية لمعالجة اوضاعنا الفاسدة عن طريق طـرح علاقات انسانية (الظالم والمظلوم) وتجسيدها بأسلوب حـى نابض ، وتركيبات ذكية تستغل المسرح داخل المسـوح ، وتستلهـم تقاليدنـا الدرامية القديمـة .

واخيرا ماذا يمكن ان يقال عن هذا اللقاء ؟

ان اول ما يميزه هو مستواه الرفيع سواء فيما يرتبط بجانب العروض او المناقشات التي دارت حولها والتي كانت تتجه في الغالب الى النقد العلمي الصريح الذي يعتبر من العوامل الاساسية الرامية الى تعرية كل جوانب الازمه التي يعاني منها المسرح المغربي .

فعلى عكس ما جاء في مقال لا نعرف نوايا صاحبه (العلم الفني 21 يوليوز 1974) يبدو للجميع ان المهرجان كان يسعى — اساسا — الى اهداف ساميه غير التي تحدث عنها صاحب المقال المذكور عند ما اكد بكل سذاجه اننا كنا نحاول من وراء مشروعنا « تنشيط » المدينة التي احتضنت المهرجان ومزاحمة وزاره الشبيبه والرياضه . والحقيقة ان غايتنا بعيدة عن ذلك ، لاننا نتحدى مهرجان الوزارة التي ذكرها لانه لم يحقق اى شيء رغم مرور سنوات عديدة على ظهوره . اما « التنشيط » فهو غاية ثانويه . وبما اننا نريد خلق تقليد من شانه ان يشمل سائر المدن المغربيه الاخرى فاننا قد حرصنا على انتقاء اجود الفرق الهاويه والتعامل مع المع الفنانين الشباب ليعيش جمهور المدينة في « تزامن » مع ابداعات مسرحية بعيدة عن التهريج ، توجه كل عنايتها الى البحث والتاصيل ، وتعمل جادة على التقاط الفئات المريضة لمجتمعنا ونقد سلوكها والتركيز على قضاياها بكل صراحة الشيء الذي لا نجده في المهرجانات الرسمية .

وعلاوة على ذلك فاننا نريد استقطاب المهتمين بالفن الدرامي لتبادل الراى ولتوفير فرص البحث والدراسة ، كما اننا نريد بناء « مناطق » مسرحية لتبادل التجارب دون اقبارها وللتعريف بكل الاعمال النظيفة وتقييمها وترويجها حتى يتمكن اصحابها من ربط علاقات متينة بالمثقفين وخصوصا بالجماهير المتعطشة التي سئمت العروض المجانية لان الواجب يفرض علينا ذلك ، والا فلن يكون في امكاننا ان نتجاوز الازمات ، ونحكم الحواجز ونجعل من المسرح ميدانا لانفتاح الافراد وتواجدهم وتثقيفهم .

أحداث ثقافية .

أ ــ « المحــرر الثقــافى » :

عادت جريدة المحرر الى الصدور بعد غيبة طويلة ، ونحن نفــرح كثيرا لهذه العودة ، ورجوع هذا الصوت التقدمى الى مواقع العمل الثقافى فى المغــرب .

ولسنا فى حاجة الى التذكير بالدور الايجابى البارز الذى لعبته كل من « التحرير والمحرر » من اجل بلورة تيــار فكــرى ابداعى متقدم ، فى السبعينات ، ساعد على توفير رصيد متكامل فى المجالات المتعددة لحياتنا الثقافية العامة ، وهو دور لا يمكن لاحد نكرانه ، او التقليل من قيمته .

ان « المحرر الثقافى » مكسب للثقافة المتقدمة فى المغرب ، مكسب رئيسى واساسى ومن اجل المحافظة على هذا المكسب نرى من المفيد فتح نقاش واسع حول الوضعية الثقافية الراهنة ، تقوم به جميع الاصوات المتقدمة ، فكرا وابداعا ، على صفحات « المحرر الثقافى » . والاسلــوب الذى سيضمن لثقافتنا ، اكثر من غيره ، فرصة للتجمع والتكامل ، من اجل خلق لغة « حقيقية » تصنع المستقبل ، هو ممارسة الديمقراطية فى الحوار والنقــاش .

ان عودة « المحرر الثقافى » اعطتنا فرحا لا ينتهى .

2 ــ معرض لكتــاب المغرب العربى :

شهد المغرب ، بالبيضاء والرباط ، معرضا هاما لكتاب المغــرب العربى ، شمل الانتاج الثقافى لتونس والجزائر والمغرب . وقد تم المعرض فى كل من دار الثقافة بالبيضاء ، ومكتبة المعارف بالرباط . ويمكن القول بأن هذا المعرض هو الاول من نوعه فى المغرب ، تقوم به مكتبتان تجاريتان رئيسيتان . وقد تمكن كثير من المثقفين من خلاله ، من الاطلاع على نوعيات الانتاج الثقافى فى المغرب العربى ، بشكل عام ، وتعرف بشكل ملموس على المساعدات التى تقدمها تونس والجزائر للمثقف فى هذين القطرين الشقيقين ، بينما تبقى وزارة الثقافة فى المغرب بعيدة عــن المساهمــة

الفعلية فى الانتاج المغربى .

ويشمل القسم الخاص بتونس انواعا مختلفة من المطبوعات ، ولنعطى صورة عنها نشير لبعض النوعيات المعروضة :

- الكتب المحققة .
- دراسات ادبية ولغوية واجتماعية .
- دراسات تاريخية .
- كتب الآثار والتراجم .
- دراسات دينية .
- سلسلة « اعلم » .
- مسرحيات .
- دواوين شعرية .
- كتب ادبية عامة .
- كتب متعلقة بالادب الشعبى .
- كتب مدرسية .
- دوريات .
- القصة .
- قصص الاطفال .
- كتب فرنسية متنوعة التخصص .

ونفس الشىء بالنسبة للجزائر التى عرضت مجموعات مختلفة ومتباينة ، رغم السنوات القصيرة التى قطعتها بعد الاستقلال . وهذا تخطيط عام للمعروضات :

- ذخائر المغرب العربى .
- دراسات ووثائق .
- قصص ومسرحيات .
- دواوين شعرية .
- الذخائر الشعبية .
- كتب للاطفال .
- سلسلة للجميع .
- كتب مدرسية .
- كتب جامعية .
- بالاضافة الى الكتب المتنوعة التى توزعها الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر .

اما الكتب المغربية فغالبيتها العظمى مطبوعة ، اما على نفقة المؤلف، او على نفقة بعض دور النشر المغربية مثل دار الكتاب ، ودار النشر المغربية ، ودار الثقافة ، ومكتبة المعارف .

ان هذا المعرض انهم عرف نهايته منذ مدة ، ونحن نود لو يدوم . بحيث تخصص هاتان المكتبتان جناحا خاصا للمعروضات المغربية ، مع الاستمرار في التخفيض من الاثمنة تشجيعا لكتاب المغرب العربي .

ونود ، من ناحية اخرى ، لو تقوم كل المكتبات المغربية بنفس هذا العمل الايجابي ، فتعرض نماذج من كتاب المغرب العربي بصورة دائمة ، مع اعطائه الاهتمام في العرض والتعريف .

واذا كان الكتاب المغاربة يطبعون كتبهم على حسابهم الخاص ، او تقوم بعض دور النشر المغربية بطبعها ، وهي ظاهرة معروفة من قبل ، ولكنها لم تاخذ هذا الشكل الخصب الا ابتداء من السنة الماضية ، فان على المكتبات المغربية تخصيص ميزانية لشراء مجموعة من هذه الكتب ، سواء من اصحابها الذين طبعوا على حسابهم الخاص ، او في دار النشر التي تسلك تجربة المغامرة .

ونظن ان مثل هذا العمل سيدفعنا لايجاد سوق شرائية للكتاب المغربي ، في الداخل على الاقل ، وتشجيع الكتاب على نشر انتاجهم القديم والجديد ، وبالتالي ستفتح امكانية ، من بين الامكانيات الاخرى ، نحو ظهور ثقافة وطنية .

3 — المنشورات المغربية :

عرف الانتاج المغربي المنشور من سبتمبر الى آخر سنة 74 ضعفا في الكم . وهذا طبيعي جدا ، اذا علمنا ان نشاط النشر يتصاعد وسط السنة الدراسية والثقافية بصفة عامة . وضعف الكم لم ينعكس على ضعف الكيف. ان المتتبع لنوعية الفكر المغربي المنشور يلاحظ انه يأخذ في الاتساع والتأثير ، وطنيا وعربيا وعالميا .

وهذه لائحة الكتب الصادرة في الفترة الاخيرة .

— الوعي الشقي — عبد الكبير الخطيبي — منشورات 10 — 18 — باريس .

— جروح الاسم الشخصي — عبد الكبير الخطيبي — باريس .

— الحياة الثقافية على عهد المرينيين والوطاسيين — محمد بنشقرون — دكتورة الدولة — الرباط .

— مع الادب والادباء — عبد الكريم غلاب — دار الكتاب — البيضاء.

— أرصفة وجدران — محمد زفزاف — وزارة الاعلام العراقية — سلسلة كتب حديثة .

وتستعد دور النشر المغربية والاوربية لاصدار مجموعة مهمة من الكتب المغربية ، ستعلن عنها بعد الصدور .